

بقلم

محمد أحمد الغمراوي

خريج المعلمين العليا وخريج جامعة لندن

وله مقدمة بقلم العلامة الجليل

الأمير شكيب أرسلان

القاهرة

١٣٤٧ – ١٩٢٩

المطبعة السلفية – ومكتبتها

صاحباها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

النقد التحليلي

لكتاب

«في الأدب الجاهلي»

بقلم

محمد احمد الغمراوي

خريج المعلمين العليا وخريج جامعة لندن

وله مقدمة بقلم العلامة الجليل

الأمير شكيب أرسلان

القاهرة

١٣٤٧ - ١٩٢٩

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

اهداء الكتاب

الى الذين حببوا اليّ اللغة صغيراً في البيت وفي المدرسة

الى أخي ، والى أساتذتي

أهدي هذا الكتاب

محمد احمد الغمراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب ارسلان

الشعر الجاهلي ، أمنحول أم صحيح النسبة ؟

﴿ توطئة ﴾

في أيام صباي قرأت قصيدة للشيخ يوسف النبهاني امتدحَ بها السيد أبا الهدى الصيادي في أيام السلطان عبد الحميد جاء فيها هذه الأبيات :

ويمّمتُ دار الملك أحسبُ أنّها	الى اليوم لم تبرح الى المجد سُلَّما
فألفيتها قد أقفرت من كرامها	ولم يبقَ فيهـا الفضل الا توهُّما
وألفيتُ مثلي أُمَّةً عربيَّةً	يرى القوم منها أُمَّةَ الزنج أكرما
وما نقموا منا بني العُرْب خلَّةً	سوى أنَّ خيرَ الخلق لم يكُ أعجما

فاستحسنتُ هـذه الأبيات ، وطفقت أنشدها في مجالس بيروت معزوة بالصراحة الى ناظمها الشيخ يوسف النبهاني الذي هو من أشهر شعراء العصر وكانت القصيدة مطبوعة منشورة وكانت معلقة ضمن إطار في دار أبي الهدى بالاستانة

فاتفق بعد ذلك بقليل أن وقعت مناقشة تعرض فيها سليم سركيس لي وحمل عليّ وأخذ بالتشنيع في حقي ومن جملة ما لجأ اليه لالحاق الضرر بي أنه أخذ ينشر

هذه الأبيات في جريدة كان يصدرها بمصر ويضعها تحت اسم الجريدة ويضع تحتها « الأمير شكيب أرسلان » ليوهم أنها من نظمي مع أنه كان يعرف جيداً أن هذه الأبيات ليست لي ولكنه كان يقصد إيقاعي في غضب الدولة

وبقي سليم سركيس نحو سنة يصدّر جريدته بهذه الأبيات مذيلة باسمي ولم يصبني بسببها أدنى ضرر ولا أصاب الناظم الحقيقي بل كان يشغل منصباً عالياً في العدلية في بيروت ولم تكن الدولة تلتفت الى أمور كهذه . على أني اظهاراً للحقيقة كنت نشرت واقعة الحال وأوضحت أن هذه الأبيات هي للشيخ النبهاني من قصيدة مشهورة مطبوعة منشورة معلقة في منزل الممدوح السيد أبي الهدى في دار السعادة

ولكن تكرار نشر سركيس لهذه الأبيات بامضائي وعدم اطلاع الكثيرين على ذلك البيان الذي نشرته خيّلا لهم أن الأبيات هي فعلاً من نظمي ، وطالما صادفتُ أناساً كانوا يهنئونني عليها ويترنمون بها وكنت أقول لهم : وددت لو أني أبو عذرتها ، ولكن الحق أحق بأن يقال وهو أن أباها هو الشيخ يوسف النبهاني .

ثم اني كنت أنظر مرة في جريدة عربية صادرة في أمريكا الجنوبية فاذا بقصيدة حماسية تتعلق بحرب طرابلس الغرب منشورة في تلك الجريدة موضوعٌ تحتها « شكيب أرسلان » والشطر الأول من هذه القصيدة فيما أتذكر :

الله أكبر سيف الحق مسلول .

فدهشت لرؤية امضائي تحتها لأنها قصيدة لم أكن أنا قائلها ، وعذراء لم أكن ناجلها . ونشرت في جريدة « البيان » بنيويورك تكذيباً لهذه النسبة ، لا حياءً بنظمها ولا تبرؤاً من تبعتها ، ولكن تقريراً للواقع

وكانت لي في حرب طرابلس قصائد أخرى لكن هذه القصيدة لم تكن لي . والذي يظهر لي هو أن أديباً نظم هذه القصيدة ولم يضع امضاءه عليها فبقيت غفلاً .

ولما كنت أنا قد شهدت جهاد طرابلس وبقيت نحو ثمانية أشهر في الجبل الأخضر مجاهداً بالسيف والقلم معاً كما كانت تقول بعض الجرائد الايطالية ، وكنت نظمت ونثرت عن تلك الحرب وسارت كلماتي عنها ظن بعض من اطلع على تلك القصيدة وهي غُفل من الامضاء أنه لا بد أن يكون ناظمها « شكيب أرسلان » لأنه هو الذي ينظم وينثر في ذلك الميدان ، وبناء على هذا الظن وضع امضائي عليها

ثم اني كنت مرةً في جنيف ازورُ أحد الشرقيين فحانت مني التفاتة الى مجلد مخطوط على منضدته ففتحتهُ فوجدت فيه أبياتاً شعرية منتخبة من جملتها بيتان قيلا في هجو أحد أمراء الشرق ممن ليس اليوم على عرشه ، وفي هذين البيتين بذاءة زائدة وما راعني الا أن رأيت اسمي تحتهما . فغضبت وقلت لصاحب المخطوط : من أنشدك هذين البيتين الساقطين ومن قال لك انهما من نظمي ؟ فقال لي : لا أتذكر من قال لي ذلك وانما هكذا سمعت . فقلت له : أنا في حياتي كلها ما هجوت مخلوقاً ولا هجواً بسيطاً فكيف أنزل الى قاذورات كهذه ؟ وفي الحال ضربت على اسمي الموضوع هناك افكاً وزوراً . والذي أظنه أن قائل هذين البيتين أراد أن يخفي اسمه حياءً بهما أو خشيةً من طائلتهما فألصقهما بي وتناقل ذلك بعضهم حتى خيل أخيراً أنهما لي لأن الخلق جميعاً لا يعلمون مشرب الشاعر ويكفي عندهم أن يقول الشعر حتى يصدقوا نسبة أيّ شعرٍ اليه

ونظير ذلك قصيدة أخرى نظمها شاعر لبناني درج منذ بضع عشرة سنة وهي تنال من أحد كبراء لبنان ، ولما كان الناظم الحقيقي قد أخفى اسمه أخذ الناس يرجمون في أمر قائلها ، فكنت أنا من جملة آبائها . والله يعلم وملائكته تشهد أني بريء منها ، بل اني كنت ساخطاً على نظمها وعلى شيوعها لأني أعد الهجاء من باب نضح الاناء بما فيه وتصوير الانسان لنفسه فالهاجي عندي هو المهجو بعينه ولو كان كلامه صحيحاً

ومن هذا القبيل أماثيل كثيرة صادفتني في حياتي : منها نظم ومنها نثر ، ومنها نكات ومنها وقائع وأفعال فضلا عن أحاديث وأقوال ، ولم يكن شيء من هذه لي ولا مني وانما كانت نسبته اليّ اما خطأً في الروايات وعدم تثبت في النقل أو عملا بمجرد الظن والترجيح بدون عمد ، أو تدليساً وتزويراً من بعض الاعداء والحساد عن قصد وعمد اذا كان ثمة ما يرجون منه ضرراً

ولا بد أن يكون ما حصل لي من هذا الباب حصل لكثيرين غيري ، وربما كانت قسمتهم فيه أوفر من قسمتي

أفنقول بعد هذه المقدمة: انه لما كان قد عزي اليّ شعر لم أقله وذلك مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو عشراً وكانت قد وردت هذه النسبة في جرائد سيّارة أو صحف منشّرة لزم من هذا أن يكون شعري الذي يبلغ مئات من القصائد ونثري الذي يملأ ألوفاً وألوفاً من الصفحات ـ لأنه محصول قلم يتحرك من ٤٥ سنة ـ هذا كله منحولا لي ومصنوعاً عليّ واني أنا لست بصاحبه !

لا نظن في الدنيا منطقياً ولا عاقلا يقبل هذا القول بل لا نعتقد أحداً ذا مسكة من عقل أو حصاة من ذكاء الا رادًّا هذا القول بمجرد سماعه . فالحادثة والحادثتان والحوادث النادرة لا يبنى عليها حكم عام أبداً

واذا اتفق لعمر بن الخطاب أن قال مرة لحسان : ارُغاء كرغاء البعير ؟ أيكون ذلك دليلا على أن عمر منع الشعر وأن حساناً لم يكن ينشده ثم ينقض ذلك كل ما ورد من الروايات الأخرى البالغة حد التواتر من انشاد عمر للشعر واستنشاده إياه وكون الرسول ﷺ قال : ان من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمة ، وانه ﷺ وصحابته كانوا يروون الشعر ويهتزّون له ويرتاحون الى سماعه كسائر العرب

أما طه حسين فبحسب قياسه المهود ومنطقه الذي مشى عليه في كتابه عن الشعر الجاهليّ لجديرٌ بأن ينكر صحة نسب شعري اليّ بأجمعه لعلة أن سليم سركيس

عزى الي أربعة أبيات هي من نظم النبهاني ، وأن جريدة عربية في أمريكا نشرت قصيدة عن حرب طرابلس نحلتني إياها وليس لي بها علم ، وان مخطوطاً في جنيف تضمن بيتين وجد تحتهما اسمي ولم يكونا لي وهلم جرا

﴿ تقليد الاوربيين فيما ليس من علومهم ﴾

وليس طه حسين في هذا الرأي الفائل والمنطق المقلوب الا مقلداً لمرغليوث أو لغيره من الاوربيين بسائق عقيدة سخيفة فاشية ـ ويا للأسف ـ في الشرق وهي أن الاوربي لا يخطيء أبداً ! وانه من حيث اخترع الاوربي سكة الحديد والغواصة والطيارة والسيارة والتلغراف اللاسلكي وما أشبه ذلك فلا شك أنه صار يفهم جيمية الشماخ ولامية الشنفرى أحسن مما يفهمهما سيبويه والخليل بن احمد. وانه لما كان قوله هو الفصل في الكيمياء والطبيعيات والطب والهندسة الخ لزم أن يكون قوله الفصل أيضاً في المفاضلة بين الفرزدق وجرير والأخطل ! وليس في الدنيا خطأ أعظم من هذا ولا طيش يفوت هذا الطيش ، فكل علم له أربابه الذين هم أدرى به . وانَّ راعي الضأن لأدرى من أرسطاطاليس في صنعته . ثم ان هذا الرأي يخالف على خط مستقيم مبدأ الاخصاء الذي يعوّل عليه الاوربيون والذي يمنع الفوضى في العلم.

وبعد هذا فقد أولع الأوربيون بخصال ولوعهم بها لا ينفي كونها خطأ لاسيما ان الغربيّ وان بذّ الشرقيّ في العلوم المادية فلم يبذّه في العلوم الأدبية ولا العقلية، وان المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرّون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية . وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول ان الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين بآداب الشرقيين ولغات الشرقيين . ولا يقدر أحد أن يدعي أن مرغليوث وغيره من المستشرقين يستطيعون ان يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب أهل اللسان التي نشأوا فيه . وأن من أحمق الحمق أن يظن أن مرغليوث لكونه افرنجياً صار يميز الشعر المصنوع

على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي ، وانه صار يظهر له فيهما ما يخفى على مثل سيبويه والخليل والفرّاء والاخفش والمبرد وابن دريد وأبي علي الفارسي وابن جني والزمخشري وأقرانهم ممن لا يحصيهم عدد ولا يحويهم بلد ، وهم جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون في لحظة صحيحها من بهرجها وأصيلها من هجينها ، واذا تليت عليهم القصيدة عرفوا من نسجها من أول بيت فيها وذلك لشدة مرانهم هذا الأمر ولكونهم وقفوا أنفسهم على خدمة هذه اللغة وأنفقوا جواهر أرواحهم من المهود الى اللحود في تنقادها ، وانهم قوم عاشوا بها وماتوا عليها ونخلوها وعجنوها وطبخوها وجعلوها قوتهم الدائم فامتزجت بلحمهم ودمهم وتمثلت فيهم ، وكادت كل جارحة من جوارحهم تنقل آثارها ، وكل شاعرة من شواعرهم تحمل شعارها ، فكيف يقدر مستشرق أوربي ، نسبته الى هؤلاء نسبة عربي تعلم الانكليزي الى شكسبير أن يدعي كونه فهم من لغة العرب ما لم يفهموه ، وانتبه فيها الى ما غفلوا عنه ، وانه عرف الدخيل من الاصيل وحقق ان الاصيل من شعر الجاهلية نزر لا يكاد يذكر ، وان الشعر الذي يقال انه جاهلي والذي جمعه المفضل الضبي في مجموعه وأبو تمام في حماسته والمعلقات السبع التي حفظتها العرب من حاضر وباد وسار ذكرها في البلاد كل هذا مصنوع ملفق مرتب بعد الاسلام نظمه شعراء مولدون ونحلوه شعراء قالوا انهم وجدوا في الجاهلية ، والحال انه لم يتحقق وجودهم أو وجدوا ولم يقولوا هذا الشعر ! . نعم خفي هذا عن فحول العربية المقرمين وأنشدوا هذا الشعر على انه لعلقمة الفحل ولامرىء القيس وللأعشى والنابغة وعروة بن الورد وهلم جراً وبنوا عليه النحو الذي وضعوه والصرف الذي ابتدعوه والاشتقاق الذي لحظوه والمفردات التي جمعوها ، لا بل بنوا عليه ذلك العروض وتلك الأوزان والارجاز والحداء والغناء وكل شيء انفهق به فم عربي ، وكانوا في هذا كمن بنى على أصلٍ فاسد أو وقف على جرفٍ هار وهو لا يعلم ما تحته !

كلا لعمري ان أئمة العربية الذين لم يذكر التاريخ أن أمة خدمت لغتها ونصحت لسانها وحررت صرفها ونحوها بمقدار ما حرروا هم لغتهم وضبطوها ودوّنوها ونقحوها وهذبوها وعرفوا منها الصحيح من العليل والأصيل من الدخيل والمطبوع من المصنوع وأشاروا الى ما ثبت أو ترجح أنه وضع بعد الجاهلية وأنه نحل غير قائله ، وهو بالقياس الى الشعر الثابت لأهله أشبه بالثمد بالقياس الى الغمر، فلم يدعوا رحمهم الله قيداً فالتاً ولا رعياً مهملا ولا سقياً مُبْهَرَجاً، وعلى فرض انه غابت عنهم أشياء لأن كمال العلم ليس من صفات البشر فليس مرغليوث ولا مستشرقة الافرنج هم الذين يقدرون أن يعقبوا على أئمة اللسان العربي وأن يصلحوا خطأهم لا سيما في المسائل اللغوية البحتة، وليس للظالع ان يفوت شأو الضليع ، وليست صفة كون هؤلاء المستشرقين افرنجاً بالتي تضمن لهم العصمة عن الخطل والزينة لدى العطل . اننا عرفنا كثيراً من هؤلاء المستشرقين بالذات وحادثناهم ونفضنا ما عندهم ومنهم من يعد في الطبقة الأولى من هذا الجنس ، ولا ننكر ما عندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ونظرات دقيقة ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة، وأن منهم مؤلفين عظاماً ومنقبين دهاةً، ولكننا لا نتردد في القول اننا لم نجد منهم واحداً – اذا رجعت المسئلة الى العربية – نقدر ان نعدّه عالما وان نقرنه الى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلا عن الغابرين . وأتذكر انى لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي ولكننا نظراً لكونهم أجانب عن اللسان نرى قليلهم كثيراً ونغضي على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا ، وهم بعد هذا لهم طرق أخصر في الوصول وأساليب أقرب الى النظام وملاحظات يساعدهم عليها تعمقهم في العلوم الأخرى كما ان معارفهم التاريخية على وجه الاجمال أوسع من معارف الشرقيين .

غرائب بعض الاوربيين

ونعود الى الخصال التى أولع بها الاوربيون وليسوا فيها على حق بل أصبحت عندهم أشبه بمرض أو هوس منها بملاحة أو خصلة : وذلك أنهم يبالغون في القليل

ويريدون ان يجدوا لكل حادثة أسباباً غريبة وعللا لا تخطر على البال ، فيأتون من هذا النوع بالغث الذي يكاد يقيء له القارىء العليم من شدة نبوّه وغرابته . ولا يزالون يُغربون في ايراد الاسباب ويتنوعون في التخرصات والتكهنات ماشاءت خيالاتهم وما طالت تصوراتهم حتى يظن الانسان أحيانا أنه يقرأ أضغاث أحلام ، وحتى تبقى الألفاظ بدون معانٍ ، وكثيراً ما يرمي القارىء بالكتاب جانبا ويزهد في القراءة ويعدل عن النظر في ذلك الكتاب الذي قد توجد فيه فوائد في جانب هاتيك السخافات

ويجوز أن يعلل فيلسوف مثل تأن Taine على النمط الخلدونى – لكن مع زيادة في الاغراب – الحوادث التاريخية التي وقعت في فرنسة ويبحث عن أصول فرنسة الحاضرة ويكون قد أصاب الغرض في كثير من أحكامه ان لم يكن في جميعها وذلك لتبحّره في تاريخ بلاده وإحاطته بأخبار قومه وا كتناهه أسرارا اجتماعية قلما عرفها غيره . ويجوز ان جهبذاً آخر مثل سنت بوڤ Sainte-Beuve قد أوتي موهبة خاصة في نقد الرجال . وترجم عدداً كبيراً من رجال أمته فرزق في هذا الموضوع حظاً أيده فيه من شدة التتبع والاستقراء ما انضم الى ما عنده من شفوف بصيرة وسداد حجة . ويليق أن كل من أتقن علماً أياً كان ذلك العلم أو أحاط بواقعة أية كانت أو قتل احدى المسائل خبراً أن يعلل ما شاء عن مقدمات ذلك العلم أو ان يدعي ما شاء من معرفة أسباب تلك الواقعة أو ان يخوض في ملاحظات اجتماعية وروحية وسياسية واقتصادية كانت هي الأصل في ذلك الحادث ، ويجدر به أن يصيب المحزّ ويطبّق المفصل في أكثر الأحيان ان لم يكن مطلقاً ، إلا أنه لا يجوز أن يوصف بالاصابة ، بل لا يجوز أن يؤخذ بالاعتبار مَن خلا ذهنه من مقدمات الموضوع الذي يريد أن يقتحم معركته أو كانت فيه أدواته ناقصة لا يصح في العقل ان تبلغ به طائلا . وان المعلومات الناقصة لأشدُّ تضليلا وأسوأ عاقبة على المجتمع

من الجهل المطبق

والحال ان الافرنجي ـ ونرجو أن لا يطالبنا القارىء بالامثال فانها مما لا تسعه المجلدات، بل كل كتاب كتبه الافرنج عن الشرق يصح أن يكون مثالا بدون استثناء ـ لايكاد يصل علمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتى يجعل منها قاعدة ويبنى على ذلك حكما ويسجله إسجالا ويرخى بعد ذلك عنان تصوراته حتى لا تعرف نفسك أفي منام أنت أم في يقظة . انظر الى تآليفهم عن الشرق والشرقيين سواء في السياحة أو في التاريخ أو في الجغرافية أو غير ذلك وتأمل مافيها ،وقارن بينه و بين الواقع الذي تعلمه أنت علم اليقين و تلمسه كل يوم بيدك وتنظره بعينك و تسمعه بأذنك ولا تقدر أن تكابر فيه إلا اذا كنت ممن يكابر في المحسوس وانظر البون الشاسع بين ما تقرأه من كلامهم وما هو بين يديك لتقضي العجب العجاب

ليس فيمن يعرف لغة أوربية من الشرقيين إلا من قرأ كتبا ألفها الافرنج عن سورية وعن مصر وعن بلاد العرب أو عن أمور متعلقة بالعرب وان تآليفهم في هذه تعد بالمئات، ونحن نكتفي بالتمثيل بها لأنها أقرب اليك وأجدر بأن تتمثل منها الحقيقة ،فيقدر ان يقسم الانسان غير حانث انه لا يكاد يوجد منها كتاب إلا وهو مشحون خلطا وخبطا ، مهما يكن من رفعة قدر مؤلفه ومن شهرته في العلم . وان الصحيح النادر منها هو الذي خلطه قليل بالقياس الى غيره

حتى ان رنان نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق و بلغات الشرق و بفلسفة الشرق وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدةً من الزمن تجد له خلطاً عجيباً عن الشرق وأحكاماً خيالية ، وقد وجد من رد عليه وأثبت خلطه ونشر ردّه باللغة الافرنسية ، ولكن شهرة رنان العظيمة غطّت على تلك الفضائح . وان من غريب التصادف أني بينما أنا احرّر هذه الاسطر اطلعت لرنان على جملة واردة في كتابه « الاناجيل » يقول فيها مايأتي أنقله بنصه :

"Ali, chez les Schiïtes, est devenu un personnage totalement mytologique. ses fils Hassan et Hossein sont des personnages reels. le mythe se greffe frequemment sur une biographie historique „

وترجمة ذلك :

ان علياً أصبح عند الشيعيين شخصاً اسطورياً تاماً، أما ولداه الحسن والحسين فإنهما شخصان حقيقيان . فالاسطورة تلقّح في الغالب على ترجمة حياة تاريخية .

لم نفهم ماذا يريد بقوله ان علياً صارشخصاً اسطورياً . فان كان مراده بذلك أن الشيعة عظموه وبجّلوه وقدّسوه حتى أخرجوه عن دائرة البشر فالجواب أن تعظيم الشيعة الامامية لعلي لم يبلغ الدرجة التي وصفها رنان بل هو عندهم أفضل الصحابة وأشرف انسان بعد الرسول ﷺ . وهذا غيرمايقول رنان . ثم لنفرض جدلاً ان علياً أصبح عند الشيعة شخصاً خرافياً فما الفرق في ذلك بينه وبين الحسن والحسين ؟ لأنه ان كان الغلو في شخص يجعله خرافياً فقد غلا الشيعة في أولاد علي كما غلوا في علي نفسه . والحال ان رنان يجعل بينهما فرقاً فيقول ان الأب صار خرافة وان الاولاد أشخاص حقيقيون . وهذا هو الخلط بعينه . وليس في الجملة شيء صحيح الا قوله : ان الاسطورة تبنى على أساس ترجمة حياة تاريخية

أفمن حيث قال رنان أن علياً صار عند الشيعة شخصاً اسطورياً ، وان ابنيه الحسن والحسين شخصان حقيقيان وجب علينا أن نقبل هذا القول لأنه قاله رنان؟

فاذا كان رنان وهو من العبقرية الافذاذ الذين لم تنجب مثلهم أوربة الا في الاعصر والقرون وممن درسوا علوم الشرق اكثر من كل أوربي آخر يخلط هذا الخلط ويخبص هذا الخبص فما ظنك بمن ليس بعبقري وليس بفيلسوف،ومن ليس نسيج وحده في قومه ، ومن ليس بواقف حق الوقوف على علوم الشرقيين ؟

ومن غريب التصادف أيضاً أنني بينما أحرر هذه السطور تناولت عدد أمس

(٩ نوفبر ١٩٢٨) من جريدة الطان وهي كبرى جرائد فرنسة كما لايخفى فوجدتها تقول في فصل عن الحزب الراديكالي :

Le groupe se tient, tire entré deux forces contraires, comme le tombeau de Mahomet dans l'espace, immobile

ومعناه :

« يبقى الحزب تحت تجاذب قوتين متضادتين أشبه بقبر محمد ساكن في الفضاء»
فمن قال ان قبر محمد صلى الله عليه وسلم « ساكن في الفضاء » ! ومن أدعى ذلك من المسلمين؟
ومرة قرأت في هذه الجريدة خبراً عن الحجاج يقول فيه : « الذين يذهبون الى مكة لزيارة قبر محمد » !

ولا عجب في ذلك فجميعهم لايفرقون بين مكة والمدينة . واذا أردنا أن نحصي في أوربة الذين يعرفون أن قبر محمد صلى الله عليه وسلم هو في المدينة لافي مكة فربما من الثلثمائة مليون نسمة الذين تأهل بهم أوربة يوجد الف شخص

وعندهم مثل سائر في معنى :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ماتستطيعُ

وهو : « قال محمد للجبل تقدم فلما لم يتقدم تقدم اليه محمد » أنا أقرأ هذا المثل كل يوم تقريباً في كتاباتهم . فمتى جرى هذا وفي أيّ كتاب ورد من كتب المسلمين ؟

نعيد ماقدمناه اننا لانطمع في ايراد أمثال على هذه القضية قضية جهل الاوربيين بامور الشرقيين لأن الانسان لايطمع أن يعدّ رمال الدهناء ولا حصى البطحاء ولا نجوم السماء

وليس من العجيب أن يقع المؤرخ الافرنجي أو الكاتب السياسي أو السائح منهم في الخطأ عند مايتكلم على بلاد مرّ بها عابر سبيل أو أقام بها مدة من الزمن

لم يتمكن فيها من كشف دخائلها أو قرأ عنها كتباً قاصرة ، وربما كان مؤلفوها من نمطه . ولكن العجيب الغريب هو زعم الكاتب الافرنجي اعطاءنا صورة تامة عن البلاد التي مرّ بها وهو لايعلم عنها الا ماسمعه من دليل الفندق أو سائق العربة أو آخرين جمعته معهم التقادير ممن ليسوا في العير ولا في النفير . وترى الافرنجي مع ذلك لاينظر الى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطمع أن يحرره ولا الى قلة بضاعته منه بل يهجم عليه هجوم من قتله علماً وبقره اطلاعاً، وتراه لايروي خبراً الا جعل له توجيهاً زعم انه الواقع مثل ان كاتباً شهيراً منهم جاء الى طرابلس الغرب أيام الجهاد وكنت هناك فذكر طبرق في رسالة أرسل بها الى مجلة « الايلوستراسيون » وقال ان بها قبيلة اسمها عائلة مريم — وهي من فروع قبيلة العبيدات — وان هذا الاسم باقٍ عليها من أيام ماقبل الفتح الاسلامي أيام كان هؤلاء الاهالي هناك نصارى ! ولم يعلم أن هذه القبيلة عربية صرفة وان تاريخ هجرة قبائل الجبل الاخضر من جزيرة العرب الى مصر ثم الى برقة معروف ولم يعلم أن المسلمين يسمون مريم . وهكذا اكثرهم عند مايكتبون عن الشرقيين يسترسلون الى خيالاتهم ويجتزئون بمقدماتهم الضئيلة ويتسوّقون من ذلك المتاع الساقط ويقدمونه لقرائهم على أنه محكم النسج جدير بالاقتناء . وكثيراً مايطلقون على هذه الخزعبلات اسم « حقائق » فيسمي الواحد منهم كتابه مثلا « الحقيقة عن سورية » أو « الحقيقة عن مصر » أو « الحقيقة عن مسئلة كذا » ومن شاء فليقرأ جرائدهم ومجلاتهم وليقرأ مثلاً : « ان مصطفى كمال منع لبس الطربوش خلافاً للاوامر القرآنية » ومالناوللشواهد وفي كل مطلع بريد يردعلى الشرقيين رزم تنوء بها الجمال من جرائد اوربة ومجلاتها وفي كل منها من الاحاديث الغريبة عن الشرق والاحكام غير المعقولة على أحواله مايكفي أن يأخذ منه الشرقيون أمثلة كافية مقنعة وحججاً راوية مشبعة بحيث ينتهون عن هذا المرض: مرض تلقي أقوال

الاوربيين قضايا مسلّمة حتى فيما يهرفون فيه بدون معرفة ، ولقد عهدت كثيراً من الشرقيين الذين يحاكون ويقارنون ويرون مافي روايات الافرنج عنا من مخالفة الحقائق وأحياناً من مكابرة المحسوسات من لايملكون أنفسهم تارةً من الضحك وطوراً من البكاء لضياع الحقائق الى هذا الحد :..

وقد يجاوب المكابرون : أفهذا الخلط خاص بالغربيين ، أفلم يكن الشرقيون ليخلطوا عند الكلام على الغربيين ؟ أفلم يعهد أن الشرقيين تسرّعوا وتهوروا كما تهور بعض الافرنج ؟

والجواب أننا لاندعي كون الشرقيين أعلم من الغربيين وحاشا أن نقول هذا بل اولئك اليوم على وجه الاجمال أعلم منا بلا جدال ، ولكن المصيبة القاتلة هي أن الشرقي يتّهم أخاه الشرقي في نقله ويسفّهه في عقله ويحتقر رأيه ولا يقبل له قولا لمجرد انه شرقي ولا يضيع الوقت بزعمه في قراءة كتبه ، حتى اذا اطلع على تأليف اوروبي ولو محشوّا بالهذيان تلقّى مافيه نازلا من السماء وعضّ عليه بالنواجذ وأبى أن يرتاب فيه أو يحاكه واذا وجد ثمة أشياء تخالف المحسوس ابتغى وجوه التأويل كما يفعل العلماء بالكتب المقدسة ، وكما يقول الامام الغزالي فيما اذا تعارض العقل والنقل . ولكن علماء الدين قد يتسامحون في التأويل ويجعلون الحكم النهائي للعقل ويطبقون الوحي عليه . وهذه الفئة الضالة من الشرقيين تأبى أن تناقش الغربي الحساب على شيء ، بل تقبل كل مايقوله صبرة بلا كيل ولا وزن . ومن هنا نشأ مانحن فيه من الازمة الادبية والاجتماعية واللغوية والتخبّط الذي ترانا نتخبّطه لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال ، وضلالات الافرنج تُلقّيت حقائق بلا جدال . ويكفي القائل أن يكون مسيو أو مستراً أو هرّاً أو سنيوراً حتى يكون قوله في كل مقام فصلا . وهذا هو البلاء الاعظم ، لأن الافرنجي يخبط في الامور

الشرقية خبط عشواء والشرقي يرى بعينه الحق ويغالط نفسه . بل الخطب أعظم من هذا وهو أن بعض الغربيين المتصفين المدققين اذا كتبوا عن الشرق اعترفوا بصعوبة مركبهم وحذروا القارىء من قبول كلامهم على علاته ، ولكن القارىء الشرقي — الا من رحم ربك — لا يطيعهم في رد شيء مما قالوه وكأنه يقول لهم : ان تحذيركم هذا ان هو الا تواضع منكم وأما نحن فمن نحن حتى نجرؤ على تمحيص كلامكم ! . كان عندنا في جبل لبنان متصرف عاقل يقول لحاشيته : أنا لا اشاوركم حتى تقولوا لي : نعم ، نعم . وانما استشيركم حتى اذا غلطت تنبهونني الى غلطي . وكان عنده مستشار مداهن موالس فقال له : ماذا نصنع اذا كنت لا تغلط ! أنقول لك غلطت لاجل خاطرك ؟ لا تبلغ بنا الطاعة الى هذا الحد . وهكذا نحن لا نريد أن نقول للاوربيين : انكم غلطتم ، ولو حذرونا من تلقي جميع أقوالهم قضايا مسلّمة . فالاوربي عندنا فوق الغلط . واذا غلط لزم التأويل . وكما أننا أخذنا عنهم الكيمياء والطبيعيات والهندسة والطب والاقتصاد والعلوم الاجتماعية فيجب أن نأخذ عنهم علم العربية ، وأن نقبل أحكامهم مسلّطة على لغتنا وأدبنا وشعرنا وعلى تاريخ جاهليتنا واسلامنا وان نذعن لما يقوله بعض المستشرقين المتنطّعين الذين يجعلون الحادثة والحادثتين قاعدة وينسون ان القاعدة إنما هي مجموع الحوادث وان في الفقه القديم يبقى على قدمه ، ثم ان فيه الضرر يزال ولو كان قديما ، وان هذا لا يعد تناقضا لأن كل مقال منهما له مقام وأسباب خاصة به ولا يمنع ذلك من وجود القواعد الكلية . وأما هؤلاء المستشرقون المتنطعون — ولا يطلق هذا إلا على نزر منهم — فاذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة في زاوية كتاب قد يكون محرفا سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معياراً ومقياسا ، بل صيروها محكّا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والاسباب

المستثناة واقتضاء الزمان والمكان .

ويرجع كل هذا التهور الى قلة الاطلاع من الاصل، هذا اذا لم يشب ذلك سوء قصد لان الغربي لم يبرح عدواً للشرقي ورقيبا له - والنادر لا يعتد به - ومن الغربيين من لم يتعلم العربية إلا على أمل أن يتتبع العورات ويحفظ المثالب ويتخذ من أعمالنا حجة علينا مثل الأب لامنس اليسوعي . ومثله الدكتور هارتمان الالماني وكلا منهما قد عرفتُ . وكان هارتمان من أشهر المستشرقين ومع هذا قرأت له مرة فصلا ينفي فيه بعض الاحاديث النبوية في حق الترك ولم يكن نفيه ذلك الحديث لنزوحه عن العقل أو لمعارضته لاحاديث أخرى أو لضعف في أسانيده ، بل زعم ان الحديث موضوع لاجل تكبير مقام النبي ﷺ وإلاَّ فالنبي قد يكون لم يسمع بذكر الترك ! فالمستشرق الشهير الذي يظن أن النبي ﷺ لم يسمع بذكر الترك ولقد كان أقلُّ بدوي جاهلي يسمع بهم لا يكون بدون شك إلا جاهلا أو متحاملا . ومثل هؤلاء لا ينبغي ان يسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية فضلا عن أن يؤخذ به حجة

الشعر الجاهلي والاسلام

ولينظر القارىء في الأسباب التي زعمها بعضهم لتزوير شعر على لسان شعراء الجاهلية لم تقله شعراء الجاهلية . فقد قالوا : ان الاسلام أراد أن يطمس كل ما تقدمه وأن يمحو كل أثر للأديان السابقة كالوثنية واليهودية والنصرانية والصابئة ، فرفع من بين العرب بعد الاسلام الشعر الجاهلي الحقيقي وتبدَّل به شعراً مصنوعاً مقلداً به نسق الجاهلية كما يزوّر بعض الناس قطع العاديَّات ويبيعونها على أنها وجدت في أثناء الحفر تحت الأرض وهي في الحقيقة جديد في هيئة قديم . انه لم يقل هذا القول كثير من الاوربيين ، بل الجمهور من مؤرخيهم على أن شعر الجاهلية هو شعر الجاهلية ، ولكن قاله بعضهم وتابعهم على ذلك نزر منا حباً بالشهرة وغراماً

بالمخالفة . وقد يكون هناك غرض أو مرض لأنه مما لامشاحة فيه أن العالم الاسلامي يجتاز أزمة اجتماعية شديدة تتجلى أعراضها تارة في الدين ، وتارة في اللغة ، وتارة في الزي ، وتارة في السياسة ، وهلم جرا.

« لامصلحة للاسلام في تعفية آثار ماسبقه »

والجواب على هذا الزعم يطول جداً الا أنه يتلخص في الامور الآتية :

الأول : ليس بضروري لاعلاء كلمة الاسلام أن يلتزم المسلمون تعفية كل أثر من آثار الديانات التي سبقته وأن لايبقى لها ذكراً ولا عنها خبراً بل مما يزيد في بيان فضل الاسلام واظهار طوله وقوته أن يعلم الناس أن قد سبقته أديان عريقة وملل طويلة عريضة عميقة وأنه جاء هو ضعيفاً فما زال يقوى ويتمكن بحول الله حتى اقتلع تلك الاديان من جذورها ولم يبق لها أثراً في جزيرة العرب . ولعمري ان حفظ ذكرى هاتيك الاديان كان ضرورياً لتبيين الفرق بين الحالة السابقة والحالة اللاحقة وليعلم الناظر المتأمل كيف نقل الاسلام العرب من عبادة الشجر والحجر وأصنام العجين الى عبادة الاله الواحد الذي لا إله الا هو ، ومن وأد البنات الى الرحمة ومن البغاء الى العفة، الى غير ذلك مما كانوا فيه وصاروا الى عكسه . وحسبك أنهم كانوا منحصرين في فيافي الجزيرة وانهم لم يكن لهم ملك ولا سلطان وكانت تغزوهم الاعاجم في عقر دارهم وكانت الاحابيش تقتل رجالهم وتستبيح نساءهم في وسط بلادهم فجاء الاسلام وملكهم أعظم أقطار العالم ومكنهم من نواصي الامم، فمن الضروري للبرهان على عظمة ماصنع الاسلام من خير للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة ، كما ان تراجم الفاتحين الكبار كقيصر والاسكندر ومحمد الفاتح وصلاح الدين ونابليون وكل الغزاة المشهورين لاتتم ولا يظهر بهاؤها ولا يعرف فضل الذين تحدث عنهم الابذكر الملوك والامم التي قهرها أولئك الفاتحون وبضدها تتبين الاشياء. ويا ليت شعري هل يخسر الاسلام أم يكسب اذا قيل إن العرب في الجاهلية كان منهم قبيلة تعبد صنماً من عجين فلما أصابتها مجاعة اكلته وقال الشاعر

في ذلك شعراً ءأيطمس الاسلام شعراً يستدل به على مقدار فضله؟ان ذلك لغير معقول.

« القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة واخبارها »

الثاني كيف يكون الاسلام تعمّد طمس ذكر الاديان السابقة على حين ان القرآن المجيد الذي هو مشرق الاسلام وينبوع الايمان ملآن بذكر هذه الاديان السابقـة وأخبارها وسيرها ريّان بتعظيم أنبيائها وتكفير من خالفهم، وهو لايفتأ يخاطب بني اسرائيل ويذكر نوحاً وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيىٰ الى عيسى بن مريم،وهناك التعظيم الاعظم،وهناك كلمة الله القاها الى مريم،وهناك ذكر الحواريين،وهناك ذكر الرهبان والقسيسين . وماذا يريد الانسان من احياء ذكرى هؤلاء الانبياء أكثر مما ورد في القرآن الكريم بل القرآن لايجعل الاسلام ديناً جديداً ولا ملة مستأنفة بل يجعله ملة ابراهيم حنيفاً انحرف الناس الى ترهات ضلال فجاء يردهم منها الى المحجة وطال الامد عليهم فقست قلوبهم فجاء يجدد فيهم بشاشة الايمان ويرقرق ماء الحياء . وكما يؤيد القرآن التوراة يؤيد الانجيـل ويقول انه لم ينزل على قلب محمد ﷺ الا تصديقاً لمـا بين يديه من التوراة والانجيل . والحاصل لايكاد الانسان يجـد في العربي على سعة بحره كلاماً يكيل به مقدار حماقة أولئك القائلين ان الاسلام زور على شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه ورفع من بين أيدي الناس الشعر الذي قالوه وذلك ليمحو ذكر كل ملة جاءت قبله وأثر كل عقيدة سبقته ! عند مايكون القرآن شمس الاسلام من أوله الى آخره لاتكاد تخلو منه صفحة من اذكار هاتيك الملل والنحل لابل من أخبار الوثنية نفسها التي ذكر القرآنُ أصنامها كاللات والعزّى ومناة الثالثة الاخرى وغيرها من الاصنام

« ما بايدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره »

الثالث يقول هؤلاء السخفاء ان أولياء أمر الاسلام انما أرادوا ليطمسوا شعر الجاهلية الاصلي تأييداً للاسلام وإخناءً على كل شيء خالفه وأنهم صنعوا على ألسن شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه وذلك بعد البعثة بقرون ! والحال أنا لانرى

هذا الشعر المصنوع الذي يقولون عنه مؤيداً الإسلام في شيء، افتراهم محوا شيئاً ثم عملوا عنه نسخة أخرى طبق الاصل ؟ فما فائدة هذا العمل اذاً وهو العمل الذي ارتكب له التزوير الذي لايعدل اثمه شيء . اننا نرى الشعر المنسوب الى الجاهلية الذي بين أيدينا نتدارسه شعراً خليقاً بالجاهلية تؤخذ منه جميع أوضاع الجاهلية ، ونرى أولئك الشعراء مشركين ويهوداً ونصارى وكل فئة شعرها تشتمّ منه رائحة دينها . وقد نقل المسلمون أشعارهم كما هي بحذافيرها لم يسقطوا منها شيئاً ولم يخرموا حرفاً وأقرأوا ذلك في مساجدهم ورووا أشعار اليهود وقالوا انهم يهود ، لابل لم يبلغ شعر من الشهرة مابلغته قصيدة السموأل اليهودي، ورووا شعر امية بن أبي الصلت والاخطل والعبادي، والقطامي وغيرهم من شعراء النصارى، وقالوا انهم نصارى . وروى النبيُّ ﷺ كلام قس بن ساعدة اسقف نجران ، ونقل علماء الاسلام خبر وفد نجران على الرسول وعلى رأسهم أسقفهم أبو الحارث بن علقمة ابن ربيعة . ورووا افتخار الاخطل بنصر انيته وبامتناعه عن الاسلام عند ماقال :

ولستُ بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقائلٍ ماعشتُ يوماً قبيل الصبح حيٌّ على الفلاح

ورووا كيف تنصّر النعمان بن المنذر في قصة مآلها ان النعمان أراد قتل حنظلة الطائيّ فاستأذنه حنظلة أن يذهب ويودع أهله فأذن له النعمان على شرط أن يقدم كفيلاً وانه ان لم يرجع قتل النعمان الكفيل، فلما كاد ينقضي الميعاد همّ النعمان بقتل الكفيل وبينما هو يريد أن يفعل اذ رأى غباراً من بعيد فانتظر فاذا حنظلة مقبل يشتد في السير حتى يصل ضمن الميعاد ولا يقتل كفيله ، فلما وصل قال له النعمان : ماحملك على هذا الاهتمام في الوصول قبل انقضاء الموعد وأنت تعلم أنك آتٍ الى القتل ؟ قال له الرجل : حملني على ذلك الوفاء . فقال النعمان : وما السبب في شدة وفائك هذا ؟ قال له : ديني . فقال له النعمان : وما دينك ؟ قال الرجل :

النصرانية . فتنصَّر النعمان . هذه الرواية وغيرها من مفاخر النصرانية رواها المسلمون قبل النصارى ولم تتحرج صدورهم بها لأنهم كانوا ينصحون في الرواية ويتحرون في النقل الى الدرجة القصوى حتى انهم نقلوا كل ماقيل من شتم الرسول ﷺ كما نقل الحواريون كل ماقيل من شتم عيسى ﷺ . وروى رواة الاسلام كيف كان كعب بن الاشرف اليهودي يهجو النبي ويؤذيه ، ورووا جميع أخبار يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر وأنشدوا الاهاجي التى قيلت في رسول الله وأصحابه ومنها :

لعبت هاشم بالدين وما　　نبأٌ جاء ولا وحيٌ نَزَلْ
ليت أصحابي ببدرٍ علموا　　جزع الخزرج من وقع الأَسلْ

وأوردوا الشبهات التى كان أعداء الاسلام يوردونها على الاسلام ، فتجد كتب السير مشحونةً بتلك الاقوال التي يدل استقصاء المسلمين شواردها على أن قضية الحذف والطمس التي يتشدق بها بعض المستشرقين ومن تابعهم من مرضى القلوب من الشرقيين لم يكن المسلمون منها في ورد ولا صدر . وقد روى المسلمون شعر عدي بن زيد الذي كان نصرانياً وقال عنه أبو عبيدة : هو في الشعراء كسهيل في النجوم يعارضها ولا يجري مجراها . ورووا شعر المتلمس النصراني وشعر البرّاق بن رواحة التميمي وشعر بسطام الشيباني وشعر حنين الحيري وشعر القطامي وكل هؤلاء كانوا نصارى معروفين . أما الاخطل فسئل عنه حماد الرواية فقال : ماتسألوني عن رجل حبّب شعرهُ اليَّ النصرانية . ولما امتدح بني امية قال له الخليفة : يا أخطل أتريد أن اكتب الى الآفاق انك أشعر العرب ؟ قال : اني اكتفي بقول أمير المؤمنين . وكذلك روى المسلمون كيف ان السيد والعاقب من أساقفة نجران وفدا على النبي ﷺ وجادلاه . وكذلك روى المسلمون أقوال قس بن ساعدة الايادي وضربوا به المثل في الفصاحة وشهد له النبي ﷺ وذكره

وتذكره وكان قس من أشهر النصارى في الجاهلية كما لايخفى

ولم تزل حرية القول عند العرب حتى مابعد الاسلام بزمن طويل ، وكان الاخطل ينشد وهو في بحبوحة الدولة الاسلامية

ولست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الاضاحي

ولست بقائل ماعشتُ يوماً قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

ولم ينله أحد بسوء . وأغرب من هـذا ان عبد المسيح الكندي النصراني كتب رسالة في الرد على دين الاسلام بعث بها الى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي في أيام عز الدولة العباسية وسلطانها وتناقل المسلمون كلامه ولم يطمسوا منه شيئاً

وكل مارواه اليسوعيون من تراجم شعراء النصرانية وأشعارهم انما نقلوه عن مؤلفي المسلمين . وليس بصحيح أن اولئك الشعراء لم يكونوا نصارى وأن النصرانية أضافها مؤلف « شعراء النصرانية » اليهم عمداً بل ان قسما كبيراً من أولئك الشعراء كانوا نصارى بلا خلاف، وقسماً آخر نصرانيتهم لايمكن الجزم بها وسواء أكان هؤلاء أم هؤلاء فالذين أوصلوا الى الخلف خبر انهم نصارى أو أن بعضهم مختلف في نصرانيته هم علماء المسلمين . وان من يقرأ السير النبوية وتراجم الصحابة كالطبقات الكبرى لمحمد بن سعد يعرف ان رواة صدر الاسلام لم يكونوا ليعرفوا نشر شيء وطيّ شيء من الاخبار والآثار فكل ما اتصل بسمعهم نقلوه وانهم رووا من الاحداث مايجوز أن يتخذه الخصم حجة عليهم وما يكون في نظر المجادل أقرب الى الذم منه الى المدح . وما فعلوا ذلك الا نصحاً منهم في التبليغ ورغبة في التحري . ولقد يبلغون من التدقيق انهم يوردون عشرين أو ثلاثين رواية كل منها بأسانيدها الوافية حتى يملأوا بها عدة صفحات لاجل تحرير جملة واحده قالها أحد السلف ويمحصوا كيف كانت تلك الجملة وقد تكون الرواية لاتختلف عن الاخرى الا بكلمة أو حرف وقد يكون المعنى واحداً . وقد وصلوا من هذا المدى الى حدان عدّه بعضهم افراطاً وضياع وقت وعابوه عليهم وتهكموا

بهم . ولكن هذا التهكم لا ينفي شيئاً من الحقيقة وهي أنهم نصحوا في النقل وتثبتوا في الرواية ولم يملوا على الناس خيالاتهم وتصوراتهم ولا تعاوروا كلام الناس بتخرصاتهم بل نقلوا ما نقلوه وتركوا الحكم للقارىء. وبالاجمال وصلوا من تحرير الرواية الى سدرة المنتهى، ورموا في أمر التمحيص فيها أبعد شأو المرتمى ، ولذلك عندما أشرت في احدى مقالاتي الى أن خلافة الاربعة الراشدين لم تكن ملكا مطلقاً كما ذهب اليه الاستاذ الشيخ علي عبد الرازق واستندت في ذلك على الآثار التي بين أيدينا ونوهت بما كان من التدقيق والامانة في النقل عند السلف وجاوبني الاستاذ بشيء من التهكم من هذه الجهة أمسكت عن اكمال هذه المناظرة وقلت : من يماري في حقيقة كهذه ليس لاحد حيلة في اقناعه، وتركته آسفاً على تمسكه برأيه

« الحكم العربي لا يعرف طريقة كم الافواه وتقييد الاقلام »

الرابع أن طريقة كم الأفواه وتقييد الأقلام والأخذ على الخواطر بأفواه الطرق وحبس هذا القول واطلاق ذاك مما يعبر عنه الافرنج « بالسانسور » غير معروفة الا للدول المتمدينة والمجتمعات التي استبحر فيها العمران ولم يقل أحد ان سكان المضارب وان القبائل الرحل ومن اليهم من سكان القرى التي أهلها على حال البداوة يعرفون هذا الضرب من ضبط الأحكام وينزعون هذا المنزع في الادارة ولا سمعنا أن أميراً أو مقدماً من هؤلاء كان يترصد الأفواه ويأخذ عليها مذاهبها ويستعرض الخطباء ويستنفض الشعراء عما نثروا ونظموا فيعقل هذه الجملة ويطلق تلك ويقول : أما هذا البيت فلا ، وأما هـذا فنعم الخ . ان هذا لا يكون عند الامم التي غلبت عليها سذاجة البداوة وكانت قريبة من الفطرة وافادتها سكنى البرية تمام الحرية لا سيما العرب المشهورين بالأنفة وإباء الضيم والهيام بالحرية الى الدرجة التي لم تعرف لقبيل من الدنيا سواهم فتجد خواطرهم وألسنتهم على نمط مضاربهم ومساكنهم لا تعرف التقيد بشيء ولا تبغي الا الانطلاق . وكل أحد يعلم مشربهم في رفع الرسوم واطراح التكلف والجهل بقواعد التعظيم وسنن

التشريف المعروفة للأعاجم وانهم كانوا يخاطبون الرسول ﷺ والخلفاء بيا محمد ، يا أبا بكر ، ياعمر الخ، وأنهم الى يوم الناس هذا اذا لقوا ملوكهم خاطبوهم: ياعبد العزيز، يافيصل ، الخ . وقد تناقش مرة المؤرخ التركي أنور باشا مع مؤرّخ تركي آخر في المفاضلة بين العرب والعجم فكان ميل المؤرخ أنور باشا الى تفضيل العرب وكان هوى الآخر مع العجم وأخذ كل منهما يدلي بحجته ، فقال أنور باشا لخصمه فى الاستدلال على شمم العرب : انظر الى العجم في لقائهم أمراء الدولة وولاتها كيف يخضعون أمامهم وينكسون أبصارهم ويكادون يقعون على الأرض جُثيًا ، وقابل ذلك بطور العرب اذا لقوا رجال الدولة والولاة فإن العربي يقابل الوزير ورأسه مرفوع ويمدّ يده لمصافحته قائلاً له : كيف حالك ياباشا كأنه يصافح أحد أقرانه . اهـ. وانك لتجد هذا في كبيرهم وصغيرهم لا يعرفون الذل لا ما ظهر منه ولا ما بطن ، ولا يطيقون طأطأة الرؤوس ولا يتحملون التكاليف والرسوم التي عند الأمم المنغمسة في الحضارة، نشأوا على هذا من آلاف من السنين وأبوا أن ينتقلوا عنه كما قال بيار لوتي الكاتب الافرنسي الأشهر ، وقد سألوه عند احتضاره : أية أمة أحب اليك من الجميع ؟ فأجاب : العرب لانهم أبوا أن يغيروا أطوارهم من آلاف من السنين اهـ وكيف يغيرون أطوارهم وهي فيهم من أثر سكنى الصحارى والضرب في الفلوات ومجاورة الطبيعة القحة والنشوء على الفطرة الأصلية وعدم استشعار الهيبة . أفمن كانت هذه انفتهم وهاتيك شدة خنزوانتهم ومن كانوا يقولون للخلفاء في وجوههم ما لا يجرؤ أن يقوله تركي أو فارسي لمختار قريته، ومن كانوا يقولون لعمر : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، ومن كانوا يقولون لمعاوية : ان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها يقال عنهم انهم أُقيموا على السانسور، واخضعوا لبدعة كم الأفواه وذلة بيع الضمائر وعقل الألسنة، وأن هناك شعراً طُوي عمداً لئلا يضر بالدين والدولة ، وأن هناك شعراً نشر عمداً ووضع وضعاً لأجل التمويه على

الناس . لا والله لم تكن هـذه أخلاق العرب، ولا يقول هذا عاقل ولا كان الخلفاء في صدر الاسلام ممن يتسفلون الى هذا الحضيض الاوهد ويطوون أقوالا منشورة وينشرون أقوالا مكذوبة احتياطاً من وراء دينهم ولم يكن خامرهم فيه الشك حتى يحتاطوا له بالكذب والبهت ، بل لم يورد كتاب السير النبوية ما أوردوهُ من الشبهات ومن المطاعن مما قاله أعداء الرسول وأصحابه الا لأنهم كانوا على بينة من أمرهم ، وكانت أقاويل الخصماء لا تزعزع من عقائدهم، والاسلام منذ ولد ولد صحيح البنية فلم يجد السلف أدنى حاجة الى خدمته بالتمويه والى نصرته بالطيّ والحذف . وكان أشد الناس اعتقاداً بمحمد ﷺ أقربهم اليه ، وأحبهم له ولدينه أعلمهم بأسراره وأوقفهم على عُجَره وبُجَره مثل زوجته خديجة ومثل رفيقه في حياته أبي بكر ومثل صهره علي ومثل خادمه أنس ومثل خادمه الآخر عبد الله بن مسعود، وهلمَّ جرّاً مما قال الكاتب الانكليزي الشهير في هذا العصر المستر ولز انه من أنصع براهين محمد لأنه ولو كان هؤلاء من أقرب الناس اليه لو علموا عليه ما يريب أو لحظوا أنه كان يقصد الخديعة أو أن سريرته غير علانيته لانفضّوا من حوله ولم يتمسكوا بكل كلمة تخرج من فمه ولم يكونوا يبيعونه أرواحهم ويستعذبون الموت في سبيله . ان مثل هـذه الامة الحرة يجوز أن تقاتله ويجوز أن تسالمه ويجوز أن تنكر دعواه صرحة برحة ويجوز أن تقبلها وتراها خير دين لهـا واما أن تخدم صاحبها بالكذب والبهتان فهذا ما لا يقرّه العقل . ولقد رباهم الرسول على الصدق حتى لقد ورد في الحديث عنه انه « ما كان خُلق أبغض اليـه من الكذب وما اطلع منه على شيء عند أحد من أصحابه فيبخل له من نفسه حتى يعلم أن احدث توبة » ورباهم على الخضوع للحق: فقد حدثوا أن يهودياً أسلف الرسول ثلاثين ديناراً الى أجلٍ معلوم فتركه حتى اذا بقي من الاجل يوم جاءه فقال : يا محمد اقض حقي فإنكم معاشر بني عبد المطلب مُطُل. فقال عمر : يا يهودي أما والله لولا مكانه

لضربت الذي فيه عيناك . فقال رسول الله ﷺ : غفر الله لك يا أبا حفص نحن كنا الى غير هذا منك أحوج الى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليّ وهو الى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج . قال يا يهودي انما يحل حقك غداً ثم قال : يا أبا حفص اذهب به الى الحائط الذي كان سأل أول يوم فان رضيه فأعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت كذا وكذا صاعاً ، فان لم يرض فاعطه ذلك من حائط كذا وكذا . قال اليهودي : فأتى بي الحائط فرضيت تمره وأعطاني ما قال رسول الله وما أمره من الزيادة اه . ومن باب خضوعه للحق أنه كان يقيد من نفسه وانه أقاد مرة من خدش من نفسه . وعن سعيد بن المسيب : أقاد النبي من نفسه وأقاد أبو بكر من نفسه وأقاد عمر من نفسه . وأخبر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن شعيب قال : لما قدم عمر الشام أتاه رجل يستعديه على أمير ضربه فأراد عمر أن يقيده منه فقال عمرو بن العاص : أتقيده منه؟ قال : نعم . قال : اذاً لا نعمل لك على عمل . قال : لا أبالي ، ألا أقيده منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يعطي القود من نفسه . بمثل هذه الاخلاق أحب الصحابة صاحبهم وفدوه بأنفسهم وأموالهم وبآبائهم وأمهاتهم . ولو لم يعلموه على هذه الصفة من حب الحق ما هاموا بحبه، وما أطاعوه هذه الطاعة كلها، وما تمكن من الغلبة الاخيرة على جميع العرب مع صعوبة مرامها وفرط عنجهيتها . أفيقال بعد هذا ان خلفاء الاسلام كانوا يأمرون بوضع الاشعار على الألسن الجاهلية ويرتكبون الكذب والتزوير خدمة الإسلام !

« هل اشترك المؤرخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت ؟ »

الخامس ولنفرض جدلاً أن هؤلاء الخلفاء وهؤلاء العلماء استباحوا ــ والعياذ بالله ــ الكذب لاجل تعزيز الإسلام وعملوا بقاعدة أوربية المَنْبِت وهي « الغاية تبرّر الواسطة » فليقل لنا مرغليوث أو طه حسين أو أحد ممن يقولون هذه المقالة السخيفة : متى وأين صدر ذلك المرسوم الامامي بأن يطوى شعر الجاهلية الاصلي

ويستبدل به شعر جديد مصنوع ويقال ان هـذا هو شعر الجاهلية ؟ وما اسم الخليفة الذي فعل هـذه الفعلة ولم يعلم بها أحد على وجه البسيطة ؟ أو ما اسم المجمع الاسلامي الذي أصدر هذا القرار وأين ومتى انعقد ؟ أفلا ترى أن المجمع المسيحي الذي قرر الاناجيـل الاربعة ورفض ما عداها وقرر احراقها معروف تاريخه بحذافيره . أفيمكن أن يكون الاسلام قام بعمل كهذا وأجمع عليـه الا بأمر خليفة أو باجماع أمة ولم يعلم بذلك أحد ؟ فمن من المؤرخين الشرقيين أو الغربيين قال هـذا القول ؟ ولعلهم يقولون ـ والمتعنت لا يقف عن الاستظهار بأية سخافة ـ ان مؤرخي الاسلام قد طووا هذا الخبر أيضاً وتجاهلوا هذا الأمر الذي أقيمت عليه الامة وعمسوا هذه الواقعة عمساً ومضت القرون وانطوت الحقب حتى أصبح هـذا الأمر في الآخر نسياً منسياً ! ونجاوبهم أن شيئاً في الدنيا لا يختفي وان كل سر جاوز الاثنين شاع وأن حادثة كهذه عرف بها مئات وألوف يستحيل أن لا تشيع وانها ان لم تسجلها الكتب حفظها التواتر من عصر الى عصر. ثم ان الاسلام لم يكن في علبة مختوم عليها بشمع أحمر ولا في صندوق مقفل بل كان من أول ظهوره مختلطاً بالملل والامم الاخرى خصوصاً بعـد أن فتح الفتوحات العظيمة ولفّ المشرق بالمغرب وضرب بجرانه على آسـية وافريقية وأوربة فلم يبق أمة في الدنيا الا استولى عليها أو تعرّف اليها أو وصلت اليها أخباره بل آثاره فلقد كانت المسكوكات الاسلامية متداولة في أقاصي البلاد الاسكندينافية فاذا فرضنا المحال وان جميع مؤرخي الاسلام ماتت ضمائرهم ولم يبق عندهم أدنى وجدان ولم يبرز فيهم واحد يقول : يا هؤلاء لا يجوز لنا الكذب وهذا حديث مفترى أفلم يكن هناك مؤرخون نصارى ويهود ومجوس ومؤلفون روم وفرس وهند وقبط وحبش وافرنج الخ أفخفي هذا الحادث عن جميعهم ولم يعلموا عنه قليلا ولا كثيراً ولا جاءت عنه كلمة في كتاب مع أنهم تعقبوا الاسلام في كل موضع

وتتبعوا عوراته ونشدوا كل حادث يشينه أو ينقصه،ومع أن منهم من افترى عليه البهت ومنهم من وضع من عنده بحقه وان من أهل الكتاب من ألفوا تآليف في عهد الاسلام وفي وسط بلاد الاسلام وطعنوا فيها على دين الاسلام وقرأها المسلمون أفنقول ان هؤلاء المؤرخين من سائر الملل تواطأوا أيضاً مع المسلمين على تلك الاكذوبة بحق الشعر الجاهلي ولم يتعرضوا لها وعملوا عليها مؤامرة السكوت كما يقال

« من كانت تلك العصابة التي تولت كبر هذا التزوير العبقري؟»

السادس لنقل المحال وان كل هذه الافتراضات جائزة فيبقى علينا النظر في كيفية نظم هذا الشعر المنسوب الى الجاهلية ، فليخبرنا مرغليوث أو طه حسين من ذا الذي قام بهـذا العمل كله بعد الاسلام ، ومن الذى نظم هذه الالوف من القصائد وألقى عليها هذه المسحة مسحة الجاهلية حتى خفي أمر احداثها بعد الاسلام حتى على أعلم علماء اللغة،ومن رتبها هذا الترتيب وطبقها هذا التطبيق على الرجال والحوادث والازمنة والامكنة ؟ فإن هذه القصائد متعلقة بوقائع شهيرة وبرجال معروفين وبأنساب متسلسلة وهى ذات علامات مطابقة حتى ان قسما من تاريخ الجاهلية مأخوذ منها فمن الذى أحدث هذه الاشعار التى هى بحر لاساحل له ؟ اكان رجلاً واحداً فرَى هذا الفرِيّ كله وصنع هذه العجائب والمعجزات وحده؟ اللهم ان الانفراد بهذا مما تعجز عنه البشر . أم كان هذا الرجل العبقري الذي قام مقام الجاهليين بأسرهم ! معه جماعة يؤازرونه في عمله . فان كانوا جماعة فمن كانوا ؟ وأين كانوا ؟ ومن ذكر من خبرهم شيئاً؟ أفلا نرى كيف ان جمعية اخوان الصفاء عرف الناس خبرها وكتبوا عنها وجمعية الحشاشيين ذكروا تاريخها ، ولم يعلم ان جمعية تألفت في الاسلام الا وقد عثر الناس لها على أثر. أفلا يخبرنا مرغليوث من حيث انه فهم من تاريخ العرب مالم يفهمه أحد أو طه حسين الذي يتولى تدريس الادب في أكبر جامعة عربية من كانت تلك العصابة من ادباء العرب بعـد الاسلام التى

تولت كبر هذا التزوير العبقري والكذب الذي جاء أبهى من الصدق مما أقرتهم عليه دولة الاسلام أو ندبتهم له ! ثم أين عاشت تلك العصابة وأين قبعت وفي أي كسر استترت وفي أي سرداب خلا بعضها الى بعض؟ وهل جرى بينها توزيع أعمال فقيل لهذا : قل أنت قصيدة على لسان الحارث بن حلزة اليشكري ، وليقل فلان مقطوعة على لسان تأبط شراً وأنا أقول كلمة على لسان عمرو بن كلثوم ! أفكان هناك مدير للحركة التزويرية أم كان كل من هؤلاء يعمل بخاطره وبما يلوح له غير مقيد بأمر ولم يكن لهم بروغرام يسيرون عليه . سبحان الله ما أشد انتظام عملهم وأحسن انطباق نظمهم على الوقائع برغم هذه الفوضى . . ثم نسأل أيضاً اكانت هذه الحوادث التي لاتنتهي من حرب وسلم وحب وبغض وفخر وحماسة ومدح وهجاء ووعظ ورثاء الخ مما صيغ لاجله هذا الشعر هي أيضاً ايجاداً واختراعاً أشبه بالقصص المسمى بالرومان ولم يكن لها أصل الا في مخيلة أولئك الوضاعين أم كانت صحيحة وكان وجود أولئك الرجال واقعياً وانما عصبة الشعراء المجهولة هذه جعلت عليها قصائد موضوعة منحولة غير قائليها وسيرتها بين الناس على أنها لهم فسارت بين الناس على أنها لاولئك الجاهليين وقيل لحماد والاصمعي وغيرهما أنشدوها الناس وقولوا انها لفلان وفلان وقولوا انها أنشدت في سوق عكاظ أو قولوا انها عُلقت على جدران الكعبة واكتموا حديث الوضع واياكم أن تخبروا به أحداً وتفضحوا السر ! وهكذا تم لخلفاء الاسلام ما أرادوا من تبديل الحقيقة هذا التبديل الذي حرصوا عليه كل هذا الحرص ـ لامر لانعلمه ـ وبقيت هذه المؤامرة المدبرة بليل لم يحسها أحد حتى كأنها عمل شخص واحد برغم أن الذين قاموا بها ينبغي أن يكونوا جماً غفيراً ، فالخلفاء وبطانتهم والشعراء وعصبتهم والرواة وحلقتهم ، وهؤلاء لايقدرون أن يبثوا كل هذه الموضوعات في العالم الاسلامي الا اذا كانوا كثيرين ، فلله درهم ما كان أقدرهم على حفظ السر . على ان هناك ماهو أغرب وهو ان طه حسين يتهم بوضع هذا الشعر الرواة الذين رووه والنحاة الذين قصدوا

به تأييد قواعد النحو واللغة على حد حكاية الخنفشار، والمحدثين الذين ابتغوا به تأييد لغة الحديث والمفسرين الذين توخوا به تعزيز أسلوب القرآن وينسى ان شعراً كهذا لايقوم به الا شعراء فحول وان كل الذين ذكرهم لو قاموا له لايقدرون على مثله . هذا على فرض المحال أن كل أولئك العلماء الاجلاء كانوا مدلسين وضاعين كذابين مفترين ا يسهل على طه حسين أن يتخيل الكذب في العلماء والمحدثين والمفسرين الى ذلك الحد والحقيقة انه ليس بسهل أصلا وليس بمعتاد ولا بمعقول ولا مقبول . يقول انهم كانوا « أتقياء بررة » وينسى أن التقوى لاتمتزج مع الكذب والافتراء . ويقول « كان القدماء مخلصين في حب الاسلام فاخضعوا كل شيء لهذا الاسلام وحبهم إياه ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن الا من حيث أنه يؤيد الاسلام ويعزه ويعلي كلمته فما لاءم مذهبهم أخذوه ، وما نافره انصرفوا عنه انصرافاً » ولا يوجد أعرق من هذا الكلام في السفسطة اذ يجوز أن يكون القدماء مخلصين في حب الاسلام وأن يتأبوا عن خدمته بالكذب والافتراء ويجوز أن يكون القدماء مخلصين في حب الاسلام وأن يجدوه مالكاً من البراهين ما يستغني به عن الاختلاق الذي من عادته أنه يضر بالقضية التي يراد تعزيزها به أكثر مما ينفعها . ويجوز أن يكون الانسان صاحب ثروة وأن يتورع عن زيادة ثروته بالمال الحرام لا بل يعتقد أن اضافة الحرام الى ماله قد تذهب بماله وان لم يكن يعتقد بذلك تديناً اعتقد ذلك سياسة وحكمة لأنه يخشى اذا حاول زيادة ثروته بالسرقة أن تعلم الحكومة بسرقته فتعاقبه وتجزيه وتغرمه بما يذهب بماله كله . فالمسلم المخلص في حب الاسلام أجدر بأن يتحامى الكذب والتدليس في خدمة الاسلام خشية أن يكون أدخل بهذا التلفيق على براهين الاسلام شوائب لا يلبث أن يفتضح أمرها وأن يعلم أنها أكاذيب فتقع الشبهة حينئذ في الاسلام كله . وأما قوله ان القدماء من اخلاصهم في حب الاسلام

« اخضعوا له كل شيء » فجملة لا معنى لهـا ، ولا يفهم الانسان مراده من قوله « اخضعوا له كل شيء » أيريد أن يقول ان الكذب والاختلاق هما من باب اخضاع كل شيء ! أفلا يعلم أن الذي يكذب ويختلق هو الذي ينتهي الامر بأن يخضع لا بأن يخضع له،وأنه لا يوجد موطن ضعف أكثر من الكذب وانه ما عزّز الانسان قضية يحبها بمثل الحق . وليس بصحيح أن القدماء « لم يتعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الا من حيث انه يؤيد الاسلام » فقد كتبوا من العلم عشرات ألوف من المجلدات التي ليست في شيء من الاسلام ، ولا نقول انها كانت تناقض الاسلام لأن الاسلام ليس بعدو للعلم حتى تناقضه ولكنها لم يكن لها تعلق بالدين ولم تكن جميع مباحث المسلمين منحصرة في الدين . كما أنه ليس بصحيح أنهم لم يتعرضوا لفصل من فصول الامن حيث أنه يؤيد الاسلام فان كتب الأدب والمحاضرات ان لم يكن فيها ماينافض الاسلام فان فيها كثيرا من الغزل والتشبيب وأخبار العشاق لا بل من المجون والبذاءة والسفاه ما هو كله منهي عنه في شرع الاسلام فكيف يقال انها تؤيد الاسلام . ولقد نقل القدماء حكمة يونان وحكمة فارس وحكمة الهند وحكم أمم أخرى وكثيراً من آدابها وقصصها وأمثالها وليس في ذلك شيء راجعاً الى الاسلام أو صادراً عن الاسلام وان كان الاسلام لا يأباها . ولقد كان الاخلق بهم — لو أرادوا حصر كل شيء في الاسلام — أن لا ينقلوا هذه العلوم الى اللسان العربي لانها علوم أمم وأقوام أجانب عن الاسلام . فالنقل عن الاجانب لا يكون واسطة لتأييد الاسلام . والحقيقة ان كلام طه حسين هـذا خلط لا يقوله أطفال ، وان الاسلام حث على العلم أينما كان وقال : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، وبناء على هذا نقل المسلمون هذه العلوم ورغبوا فيها

« متى وقع هذا النظم على السن الجاهليين ؟ »

السابع نسأل طه حسين ومرغليوث أن يتفضلا علينا بالتبيين متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين في أي حقبة من حقب الاسلام فان لهذه المسئلة مكاناً

خاصاً من الاهمية ، لانه من المعلوم أن شعر الجاهلية هو الذي منه شواهد النحو والصرف واللغة وانه الحجة التي يستشهد بها عند التصحيح . ولما كان قد خفي بزعمهم كون هذا الشعر محدثاً مصنوعاً على أولئك الائمة: الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عمرو والفراء وأبي زيد وابن دريد ، وعلى البصريين والكوفيين الخ ! استشهدوا به في كتبهم وحلقات دروسهم ودونوا هذه الشواهد ، لا بل استخرجوا من تلك المفردات قواعد عامة وسموا ذلك علم النحو وعلم الصرف وعلم اللغة، وأخذ الخليل من أوزان تلك الاشعار علم العروض . فيجب علينا أن نعرف في أي دور من أدوار الاسلام وقع هذا الوضع وهذا التزوير، لانه ان كان في زمان الخلفاء المتقدمين فيكون وُضّاع هذا الشعر ورواته قد عاصروا كثيراً من واضعي النحو وجامعي اللغة ،وعاصروا أبا الاسود الدؤلي، ولا يُعقل أنهم كانوا في عصر واحد وان النحاة واللغويين استشهدوا بشعر وضعه أناس في عصرهم عائشون بين أظهرهم ولم يشعروا بما فعلوه والحال ان من عاداتهم أنهم اذا ارتابوا في بيت نبذوه ومنعوا الاستشهاد به . وان كان هذا الوضع متأخراً الى زمن الخلفاء العباسيين مثلا فلا يعود ممكناً أيُّ تأويل لقضية الاستشهاد بهذا الشعر في قواعد النحو واللغة لانه يصير زمن الوضع متأخراً عن زمن الاستشهاد أي ان هذا الشعر صنع بعد أن استشهد به وبعبارة أخرى أنه متأخر عن نفسه . . وهذا محال . فلا يخرجنا من هذا المأزق الا تعيين تلك الحقبة التي وضع فيها هذا الشعر !. ولما كان الدكتور طه حكم بأنه موضوع مصنوع وان الصحيح منه قليل جداً فلا بد أن يكون بنى حكمه على مقدمات كافية من جملتها معرفة أسماء الصانعين والتاريخ الذي صنعوا فيه ولهذا كنا نود لو جاد لنا بالتعيين والتوضيح لأن مجرد الشك لا يكفي مداواةً للحكم كما لا يخفى

« الحقائق لاتكون تحت رحمة الشكوك »

الثامن ان طه حسين يعلن فيما سمعت أنه لم يثبت عنده من الكلام

العربي الذي ظهر في الجاهلية سوى القرآن . ولا نعلم لماذا لا يعترض على ثبوت المصحف أيضاً ؟ فان كان ذلك من أجل ثبوته بالتواتر من عهد رسول الله ﷺ الى عهد خلفائه الراشدين وان الناس اتفقوا عند ما جمعه أبو بكر و كتبه عثمان في المصاحف على أن هذا هو القرآن وان اتفاق هؤلاء المئات و الالوف من الحفاظ لا يمكن أن يكون على باطل فاننا نقول له حينئذٍ ان هناك أموراً وحوادث أخرى قد أثبتها التواتر أيضاً و ان لم يكن بدرجة القرآن من أجل صفته الدينية فلقد ثبت ثبوتاً لا يحتمل المراء ومنها هـذا الشعر المعروف بشعر الجاهلية ، فهذا ثابت بالعقل والنقل وبالدراية والرواية انه شعر قاله شعراء الجاهلية ، وانه ليس بمصنوع ولا منحول بعد الاسلام ، وان المصنوع منه نزر لا يذكر قد نبه عليه العلماء . وان قال : الا أن بعض الناس قد طعنوا في صحة نسب الشعر الجاهلي. قلنا له ولكن التمحل لا يبطل حقاً ولا يحق باطلاً، وان بعض الغلاة من الشيعة لا جمهورهم يزعمون أن القرآن الكريم أيضاً حذف منه وأضيف اليه ، وليس هذا القول أكثر من سخفٍ وهُراء وان الحقائق التاريخية لا تبطل بمجرد تعنت متعنّت أو جحود جاحد . ولقد ذهب عدد من كتاب أوربة ومؤرخيها وفلاسفتها أن المسيح لم يوجد وانه Mythe أي أسطورة من الأساطير ولكنهم أخطأوا لا لأن الاناجيل ثابتة بالتواتر بالدرجة التي ثبت بها القرآن ولكن لأن الأدلة التي أقاموها أضعف جداً من الأدلة القائمة على مجيء السيد المسيح صلوات الله عليه ، حتى ان نابليون عبقريّ الدهر أورد ريبته في مجيء المسيح أمام أحد العلماء فقال له هذا : يامولانا انه هكذا يبطل التاريخ . فسكت نابليون واقتنع ، وكل عاقل يذعن للحق . فليس الحق اذاً موقوفاً على اثارة شبهة أو على نتيجة منطقية مقدماتها فاسدة « كان القدماء أتقياء يحبون الاسلام ويريدون تعزيزه . ومن باب تعزيز الاسلام إلغاء شعر كان قبل الاسلام ، فلذلك ألغي القدماء كل ماقيل قبل الاسلام ووضعوا شعراً آخر بدلا عنه » ! والحقيقة أنه كان القدماء أتقياء يحبون الاسلام ويريدون

تعزيزه ، ولكنهم كانوا أتقى من أن يعززوه بالكذب ، وأعقل من أن يجهلوا أن الكذب بئس الدعامة وأنه يضر أضعاف ماينفع . ثم ان الشعر الجاهلي الذي بين الايدي ليس فيه شيء من باب تعزيز الاسلام فياليت شعري لماذا وضعوه ؟ وما ذا استفادوا منه في قضيتهم ؟ . هذا وان كثيرين من هؤلاء الشعراء الجاهليين عاشوا الى زمان الاسلام ويقال لهم المخضرمون ورآهم النبي ﷺ ورأوه ، وقد جاءه منهم الاعشى ومدحه وقال له :

فآليتُ لا أرثي لها من كلالةٍ ولا من وجًى حتى تزور محمَّدا
نبيٌّ يرى ما لا ترون وذكرُه أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ومدحه كعب بن زهير بقصيدة بانت سعاد المشهورة وطرب لها رسول الله ﷺ وألقى اليه ببردته الشريفة . ولما وصل الى قوله :

ان الرسول لسيفٌ يُستضاء به مهنَّدٌ من سيوف الهند مسلولُ

قال له الرسول : من سيوف الله . وهكذا سار البيت من بعدها

ورأى الرسول ﷺ زهيراً نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتياً وقال : اللهمَّ أعذني من لسانه . ووفد عليه شعراء وخطباء ووفد على خلفائه من بعده ورآهم الخلفاء وعرفوهم وعرفوا أنهم آباء ذلك الشعر وقال عمر : مَن أشعر الناس ؟ فصار كلٌّ يذكر شاعراً فقال لهم : أشعر الناس صاحب ومَن ومَن أي زهير في المعلقة . وكل من كان في محيط الخلفاء من صحابة وتابعين وممن رأى ورأى من رأى كانوا يعرفون هؤلاء الشعراء ويعرفون شعرهم وما اختلفوا فيه ، وان المختلف فيه لنزر لا يذكر كما تقدم ، وما محص العرب شيئاً أكثر مما محصوا الشعر . فاذاكان بعد هذا كله لا يلذ للدكتور طه الا الشك فاليقين لا يزول بالشك كما قال الفقهاء ، وبمثل هذه الطرق في البحث لا يبقى تاريخ كما قال صاحب نابليون لنابليون

هذا ما عندي من أمر الشعر الجاهلي ، واني لأجدُه فضولا بعد أن جال في

هذا الميدان لحول وفوا هذا الموضوع حقه فخروا وأنبطوا وغاصوا فالتقطوا وجالوا فجادوا وأنفسوا وناضلوا فرموا وقرطسوا ، ولو لم يكن من هؤلاء الفحول الصائلين سوى الاستاذ محمد احمد الغمراوي مدرس الكيمياء في كلية الطب في تأليف هذا الكتاب الباهر ذي البيان الساحر والبرهان الذي يقطع الاباهر لكان مغنياً عن جولان التالي مع المجلي وعن مقارنة الامام بالمصلي ، وانما أردت أن ألقي دلواً في الدلاء وأكون على هذا المحصل الباهر من جملة الأدلاء . ولعمري ان الجواد عينه فراره ولذلك حسبي من وصف هذا الكتاب الاشارة الى بعض ما فيه مردفاً إياه بما يعن لي في بابه . قال في صفحة ١٨ :

تدريس الآراء القطيرة باسم التجديد

« كتاب الأدب الجاهلي الآن والشعر الجاهلي من قبل ليس الا مجموعة من الآراء الفطيرة التي خالف بها صاحبها جمهور أهل فنه ولم تتناولها العقول والأقلام بالفحص والتمحيص الا بعد نشرها في صورة كتاب ، مع أن الكتب لم تجعل في العادة خصوصاً ما أعد منها للطلبة المبتدئين الا لتضم المفروغ من اثباته وتشير من بعيد ان أشارت الى الحدود التي بلغها العلم . ومن الغريب المدهش أن تلك الآراء لم تنشر على أهل العلم والأدب في هذا البلد الا بعد أن كانت ألقيت بالفعل على طلبة الجامعة وامتحنوا فيها . ألقيت عليهم باسم التجديد في الادب كمثل من أمثلة البحث العلمي الحديث . ولسنا نعرف أعرق في الظلم وأبعد عن أصول التربية من هذا النمط في التعليم . ولسنا نعرف أعرق في الرق العقلي وأبعد عن التربية الحرة من أن يتحكم شخص هذا التحكم في عقول النشء فلا يعلمهم الا رأيه الخاص ولا ينشئهم الا على مذهبه الخاص .. الخ »

فليسمح لي الاستاذ الغمراوي أن أعلل له النفسية التي ساقت الى ما نبه عليه مما هو في الذروة العليا من الأهمية . أولا ان الشرق أراد خلع القديم في التعليم وتقليد الغرب فيه . ثانياً انه لم ينضج نضوجاً كافياً في التقليد فصار يظن أن كل

مخالفة لشيء سابق في الذهن بخطأ أم بصواب هي الاسلوب الغربي الذي يجب الاخذ به. ثالثاً ان طه حسين لم يُرد شيئاً سوى المخالفة لرأي الجمهور الذي صار الاجماع عليه حتى الآن وهذا مُعدٌّ ليكون مقدمة لخرق اجماعات أخرى في علوم أخرى. رابعاً عند هؤلاء المتهوسين بتقليد الغرب كل رأي جديد فطيراً أو متخمراً يطلق عليه اسم « حقيقة علمية » مع ان النظرية الجديدة هي غير الحقيقة العلمية كما لا يخفى. وان هذه « الحقائق العلمية » في الطب والطبيعيات والعلوم المادية لا تزال تتجدد وينقض آخر منها أول فما بالك في الامور الادبية والتاريخية. خامساً انه بحسب هذه القضية الفاسدة يكون رأي طه حسين الذي هو رأي جديد في الادب « حقيقة علمية » رأساً فلا يحتاج الى فحص ولا تمحيص. أو ليس مخالفةُ ما قرره السلف هو « الحقيقة العلمية » ؟. سادساً ان الهوس بقبول الجديد بدون فحص ولا تمحيص ولا سيما في مواضيع نحن أدرى بها من متطفلة الغربيين يعد ضرباً من الحماقة. سابعاً ان المسؤول عن تدريس آراء غير ممحَّصة كهذه في المدارس العائدة للدولة والتي تنشأ فيها احداث الامة هو نظارة المعارف. سابعاً ان المسؤول عن تهور نظارة المعارف هذا هو مجلس الامة. ثامناً ان المسؤول عن اهمال المجلس مناقشة نظارة المعارف الحساب على تدريس آراء لم يقم دليل معقول على صحتها هو الامة نفسها التي تركت نوابها يغضون على هذا التضليل. فالامة هي المسؤولة في هذا التضليل وفي أمثاله ، والامة هي التي يجب عليها تقويم نوابها ، والنواب هم الذين يجب عليهم أن يسألوا الحكومة في المجلس ، والحكومة هي التي يجب أن تجاوب عن ارخائها العنان لرجل يلقي على النشء آراء سخيفة ويجعلها « حقائق علمية » وياللأسف

بحران الشرق الاجتماعي

وفي صفحة ٢٠ يقول :

« فالناس يستحسنون في الماديات الجديد ويفضلونه على القديم . فالملبس

الجديد مثلا والمسكن الجديد خير عندهم من مثله من القديم وهم يأخذون في ذلك بتجاربهم فهم فيه على صواب . لكن اذا نقل ناقل القدم والجدة الى المعنويات فبدأ يكلم الناس عن الأدب القديم والأدب الجديد والمدنيه القديمة والمدنية الجديدة كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون من غير أن يكونوا غالباً على صواب فى الاستقباح والاستحسان : يستحسنون المدنية الجديدة ولعلها شر من المدنية القديمة ، ويستقبحون الادب القديم ولعله خيرٌ من الادب الجديد . وهم لا يفعلون ذلك لانهم يرون مدنية خيراً من مدنية وأدباً شراً من أدب لكن لان الجدة فيما ألفوا من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل فيجرون المعنويات مجرى الماديات عفواً من غير قصد ، ويقعون طبعاً فى نفس الخطأ الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل فى قياس واحد لفظاً واحداً مشتركا بين معنيين مختلفين . والناس معذورون اذا فعلوا هذا ، اذ ليس منتظراً من جمهورهم أن يكونوا مناطقة مدققين أو أن يحذروا سوء استغلال قانون الربط أو القران النفسي أما الذي تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ هو ذلك الذي يستغل أمثال تلك الالفاظ من غير حق وينقلها عما ينطبق جوها عليه الى مالا ينطبق جوها عليه . واذا كان هذا الاستغلال منتظراً أو على الاقل لا يمكن منعه في الدعايات الحزبية وحيث تراعى المصلحة ولا تراعى الحقيقة فان الابحاث العلمية والادبية يجب أن تبرأ منه اذ يجب أن يكون للحقيقة فيها المكان الاول »

قد مسَّ الاستاذ الغمراوي هنا أهم موضوع تجول فيه أفكار المفكرين ألا وهو موضوع البحران الاجتماعي الذي يتخبط الشرق من أوله الى آخره والذي كل واحد يرى فيه رأياً وقد عمت فيه الحيرة واشتد الاضطراب وتصادمت الافكار وتوافقت الميول وتناجزت المشارب ونظير جميع الاشياء التي تبتدي أفكاراً فتنتهي أفعالا وتنزل من الرأس الى اليد . انتهى هذا البحران من اللسان

الى السنان ومن القلم الى الحسام ،فسالت الدماء وزهقت الارواح . ولكننا لا نزال في مبدأ البحران ولم نخض الا رقارق من الماء . وسيأتي يوم تسيل فيه دماء وتزهق نفوس أضعاف أضعاف ما جرى الى الآن ، بل ما جرى الى اليوم سيعد بجانبها لعباً ودداً

هذا البحران الاجتماعي أساسه أن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ، ورأى الشرقيون أنفسهم قد أحيط بهم وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمراً ، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغربي فقالوا : ليس لنا الا أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه . ولما كان سلاحه هو الثقافة الاوربية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغربي من تسخير البخار والكهرباء قالوا : لا بد لنا من أن نختار لانفسنا هذه الثقافة فاذا تحققنا بها صرنا أكفاء للغربيين ورفعنا سلطتهم عنا . والى هنا كان الخلاف يسيراً وكان الجامدون على القديم قد يذعنون للقواعد القديمة التي منها أن الضرر لا يكون قديماً والتي منها أن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها وأيان وجدها ،والتي منها الامر بالسير والنظر وتدبر أسرار الكون والاكتراث لامر الدنيا كما لامر الدين وغير ذلك مما ليس لجامد معه أدنى مجال للمكابرة . ولكن الذي اصطدمت فيه الافكار واصطكت الآراء ولمعت من اصطكاكه بوارق الشر التي لا تزال مع ذلك في مباديها هو : هل يجب أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها وتقبلها على علاتها ونتلبس بها في طويلها وقصيرها وأحمرها وأسودها وأن نتلقى هذه النظريات كلها من مادي ومعنوي بدون استثناء ونتلقاها قضايا مسلمة لا يجوز لنا النزاع فيها أو الاعتراض على شيء منها ، أم يجب علينا أخذ النافع وترك الضار وتلقي العلوم المادية الباحثة في المواد الصامتة بدون تجاوز ذلك الى المنازع الروحية والى مصدر ادارة الكون . وبعبارة أخرى هل ينبغي لنا أن نأخذ عن الاوربيين كل مادي وأدبي وطبيعي وروحي وصوري ومعنوي ؟أم يجب أن نقتصر على البحث

واختيار الانفع والاجدر بأن يصيبنا من تركه ضرر وأن نحافظ على ثقافتنا الشرقية القديمة التي هي من مقومات وجودنا ومشخصات استقلالنا،وعلى عقائدنا وآرائنا في الامور الاجتماعية والادب واللغة والكتابة والغناء وطرز البناء واللباس والفراش وما أشبه ذلك ؛ فهذه كلها مواضيع أصبحت ميادين جدال وستنقلب ميادين جلاد ، وكانت معتركات عقول فستصير معتركات أبدان

فبعض الشرقيين ذهب الى أن الثقافة الغربية يجب أخذ الشرقيين لها بحذافيرها وعلى علاتها ومع جميع مستتبعاتها وبدون جدال فيها .وقال التركي احمد أغا يف :ان المدنية الاوربية كل لاجزء ، وانها أشبه بالجوهر الفرد الذي لايتجزأ بعضه عن بعض.أى اذا وجب علينا أن نأخذ بقول سبنسر في مسئلة اجتماعية أو داروين في مسئلة كونية أو باستور في مسئلة ميكروبية وجب علينا في الوقت نفسه أن نلبس زيّ هؤلاء العلماء ونأكل مثل طعامهم ونتلذذ بمثل مايتلذذون به من الموسيقى ونقيم بمساكن أشبه بمساكنهم منجهة هندسة البناء ونذهب مذاهبهم لا في العلوم الطبيعية فحسب بل في العلوم الادبية والفنون الجميلة وفي الادب والشعر وأسلوب الكتابة

ولعل للغلاة في هذا المشرب مأرباً سياسياً خاصاً ليس هنا مكان شرحه اذ ان بعض أمم الشرق الادنى كانت حتى اليوم مطبوعة بطابع المدنية العَرَبية وكانت تصيب من وراء ذلك جاها وعزًّا وبسطة في الملك،فلما تحولت الاحوال وصارت الكلمة العليا للاوربيين رأى بعض رجالها أن تطبع نفسها بطابع أوربي بحْت تزلفاً للامم الغالبة واندماجاً في غمارها وتفصياً من الامة العربية التي هي في الواقع أجنبية عنها ولم تدخل في دينها ومدنيتها الا من الف سنة حباً بالملك والسلطان اللذين كانا مقرونين يومئذٍ بدين العرب وحضارة العرب،فلما زال السبب اقتضى أن يزول المسبب ،وعلى كل حال لم تخسر تلك الامة التي تريد أن تجحد ماضيها

العربي شيئاً من عندها بل هي كانت متلبسة بثوب عارية فتريد الآن أن تخلعه وتلبس ثوب عارية آخر فهي من مستعار الى مستعار ، تستعير بحسب أحوال الزمن

ولعل أصحاب هذا الرأي من تلك الامة مخطئون في غلوهم ولكننا نتركهم وشأنهم ينتصف بعضهم من بعض ، وسيرى الناس كيف تكون العاقبة ، والحكم للنتيجة لا للمقدمات

ولكننا نخاطب الامة العربية التي هي وحدها عالم كبير يملك جميع مقومات الامم الكبرى ، فنقول لها :

ليست العلوم والمعارف في الدنيا شرقية ولا غربية بل هي سلسلة واحدة يلد بعضها بعضاً : فشرقي أصله غربي وغربي أصله شرقي وهلم جراً . فكلمة « العلوم الاوروبية » اصطلاح عامي في الحقيقة ، فإن العلم لا وطن له

لنفرض ان هذه العلوم المسماة « أوربية » هي وضع الاوربيين وحدهم فليس ذلك بسبب أن نتحول الى أوربيين وان ننكر أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها لاننا نقدر أن نتعلم هذه العلوم ونطبقها بالعمل ونحن باقون على عربيتنا . فاليابانيون هؤلاء قد نقلوا جميع هذه العلوم الى بلادهم وضارعوا فيها الاوربيين بالتمام والكمال ولم يزالوا يابانيين في كل شيء . وكذلك الافرنج أنفسهم نقلوا علوم الشرق من قبل الى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين . وهم الى يوم الناس هذا مع رقيهم في العلوم الطبيعية والرياضية الصحيحة يأبون أن يتحولوا عن عاداتهم ومشاربهم وتقاليدهم وعقائدهم التي منها مالا ينطبق على هذه العلوم . وان من أرقى أممهم في الحضارة والمعارف المادية الامة الانكليزية ، هذا لا يختلف فيه اثنان ، ولها من السيادة على المعمور مالا يدانيها فيه أمة اخرى ، وهي أشد الامم استمساكا بدينها وتقاليدها وتذكراً لماضيها ونزوعاً الى المشرب الروحي

انقل ان الاوربيين هم أبحر للعلوم منا وأطلع على خزائن الغيب وان معارفهم هي التي كسبت لهم هذه البسطة وهذه السلطة فلا يوجب ذلك أن نأخذ معارفهم

بدون جدال لأن هذا خلاف شرط التمحيص الذي تعدُّه المدنية الاوربية من مزاياها ، ولأن المحققين من الاوربيين أنفسهم لا يدّعون انهم على حق في كل شيء وانهم وضعوا الحقائق في جيوبهم وجف القلم

لنقل ان معارفهم من حيث المجموع هي أرقى من معارف الشرقيين ، فليس يعني ذلك انهم صاروا أبحر منا في العلوم الخاصة بلغتنا وآدابنا و ان قولهم في الادب العربي صار ينبغي أن يكون فصلا وانه من حيث كان الذي كشف أشعة رونتجن أوربياً وجب أن يكون الاوربي أدرى من العربي بشعر الجاهلية، وانه اذا خلط منهم خالط في هذا الموضوع لزم أن نحترم خلطه ونحتشم ضلاله . فالعلم ليس ملكا لاوربي ولا لعربي وانما هو مشاع أولى الناس بأن يحكم فيه المتخصصُ به من أيّ قوم كان . فنحن أدرى بلغتنا وبأدبنا وبشعرنا من الاوربيين وبالتالي أصح حكما على هذه الاشياء منهم

ليس الشرقي مرادفاً لقديم ولا الغربي مرادفاً لجديد ، بل عند الغربيين عقائد وعادات وأطوار وأوضاع قديمة قد تكون أقدم من أندادها عند الشرقيين . فمن اكبر الاغلاط تلقي كل قول أوربي جديداً وتنزيله منزلة اختراع صناعي أو كشف علمي

ليس كل شيء قديم منبوذاً وليس كل شيء جديد ـ برغم ان كل جديد له طلاوة ـ مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن ينظر في العلم الى الاصح ، وفي العمل الى الاصلح ، بدون ملاحظة ان هذا جديد وذاك قديم

ان كان كل قديم يجب نبذه والعدول عنه الى جديد فلا يكاد يوجد شيء أقدم من الخبز الذي لايزال الخلق مجمعين على اتخاذه قوتاً في كل مكان وجد فيه القمح . ولو مضت مائة الف سنة لما كان العسل الا عسلا بطعمه وخواصه كما كان منذ مائة الف سنة قبل اليوم . ان هذه أمور مرتبطة بالذوق الانساني ومقتضى

الفطرة البشرية ، فما دام الانسان هو الانسان فهناك بالنسبة اليه أشياء ليس فيها قديم وحديث

الادب قضية ذوق معنوي عائد الى طباع كل امة ومشاربها . ومما لاجدال فيه ان الادب قابل للتجدد وانه يتأثر بكل مؤثر جديد وانه يتلون بلون الزمان والمكان ، وان الادب العربي نفسه دخل في أطوار مختلفة من الازمنة والأمكنة التي وجد فيها ، ولكن هناك مسائل عائدة الى ذوق الانسان العربي الكامل والى اسلوب اللغة العربية الاصلي . فهذه مسائل ليس فيها قديم وحديث بل فيها غث وسمين وبارد ومستكره ، والامور الذوقية لاتعرّف بل من ذاق عرف

ان كان العصر الحالي فاق العصر الماضي في الطبيعيات والكيمياء وجر الاثقال فلا يستلزم ذلك أن يكون فاقهُ في الشعر والابانة عن عواطف النفس . وان العبقرية لنشيدةُ الاقوام بدون نظر الى زمان أصحابها . أفيوجد في الانكليز اليوم من له مكانة شكسبير في الشعر أو في الالمان من له مكانة غوته ؟ وليس واحد منهما من أهل العصر الحالي . كذلك الجاحظ وابن المقفع وبديع الزمان امثلة انشاء العرب ، وأبو نواس وبشار وأبو تمام أقيسة قريض لهم سواء اكان العرب الاولون أم المحدثون لايضر بفصاحتهم انهم عاشوا في الزمن السالف فالمسئلة مسئلة خيال وشعور وملكة ابانة عنهما ، وهذا ليس في شيء من الكيمياء ولا من الميكانيكيات. فلا ينبغي خلط العلم مع الادب ولا الصناعة وجر الاثقال مع الفصاحة . وان اقحام لفظي قديم وجديد هنا هو استغلال ألفاظ بغير حق كما يقول الاستاذ الغمراوي بل هو تضليل وقلب لحقائق الاشياء واقيسة فاسدة ليست نتائجها عن مقدمات صحيحة

مادة « الادب » في الكلام العربي

وقد أشار الاستاذ الغمراوي في صحيفة ٢٢ من كتابه الى التعسف الذي تعسفه طه حسين في بحث « الادب » واشتقاق هذه الكلمة وكيف أنكر أن تكون عرفت في عصر الجاهلية أو زمن البعثة، وأورد الشبهة على أن يكون الحديث

النبوي « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » صحيحاً بلفظه وكيف مضى في تعليلاته كلها على انه « ليس مايمنع » وأخذ يبني عليها أحكاماً طويلة عريضة . فقال الاستاذ الغمراوي ان « ليس مايمنع » هذه لاتفيد الجزم والقطع وانما هي تقال في باب الاحتمال . ثم استلطفت جداً قوله :

على انه اذا كانت المسئلة مسئلة يجوز وليس مايمنع ، فليس مايمنع أن تكون النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة عن الجاهلية صحيحة ويجوز أن يكون الحديث الشريف الذي أشار اليه قد صح عن النبي بلفظه »

وانا أقول انه عدا حديث « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » توجد أحاديث كثيرة من زمن البعثة فيها هذا الحرف كقول علي كرم الله وجهه : « اما اخواننا بنو أمية فقادة أدَبة » جمع آدِب وهو الذي يدعو الناس . وقول ابن مسعود : « إن هذا القرآن مأدبة الله في الارض » أي مدعاة الله في الارض . كلا الحديثين استشهد بهما لسان العرب . ولعلي اذا انتدح لي الوقت أجد أحاديث أخرى من ذلك العهد فيها هذا الحرف . فان قيل انه لايمكن الجزم بصحة تلك الاحاديث ولو جاءت معنعنة عن ثقات الرواة ، قلناهكذا لايبقى تاريخ ولا يعود امكان للبحث . وما أحلى قول الغمراوي :

«وعلى ان اسبقية هذه الكلمة على العصر الاموي أرجح جداً من التجويز والاحتمال ، فقد رُويت نصوص كثيرة عن الجاهلية وفجر الاسلام كل منها يحوي مادة أدب في صورة من صورها ، وعلماء اللغةقد قالوا بصحة تلك النصوص . و نبذ ماصححوه من غير ماقرينة ولا داع شطط واسراف تضيع معه الحقائق ولا ينمو به الادب »

نسبة الانتحال الى المحدثين والمفسرين والمتكلمين والنحاة

وفي صفحة ١٠٠ يبسط الاستاذ الغمراوي مذهب الدكتور طه حسين في الشك : هذا الشك الذي هام الدكتور بحبه حتى انتهى الى أن اتخذه قانوناً للترجيح والتجريح فيقول : ان ما ادعاه طه حسين لنفسه من أن الشعر الجاهلي موضوع جله

ان لم يكن كله هو دعوى مرجليوث لادعوى طه حسين في الحقيقة

يقول : وقد سماها طه حسين نظرية وأعلنها في الكتاب أول مرة في صفحة ٦٤ وأعلن الفراغ من اثباتها في صفحة ١١٦ اذ يقول : « ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الاسباب المختلفة » الخ

قلت اني لا ألوم الدكتور طه حسين الذي قصاراه ان يسرق رأيا لمستشرق أوربي خالف فيه جمهور المستشرقين فضلا عن علماء العرب، وان ينتحل هذا الرأي لنفسه متبجحاً به كما ألوم نظارة المعارف المصرية التي تركت ناشئة الأمة التي آمنتها على أحداثها ألعوبة في أيدي مضللين يحسبون مجرد الشك يقيناً ويبنون عليه أقيسة ويلعبون بالحقائق التاريخية التي أقرّها جمهور الشرقيين والغربيين وينقضونها بدون أدنى دليل يصح الاعتماد عليه ليقيموا مكانها أوهاماً في أوهام وأقاويل أشبه بأضغاث أحلام ويلقنونها نشء هذه الامة على انها حقائق علمية !! ان عملا كهذا لو وقع في بلاد أوربية لسقطت من أجله الوزارة بأجمعها لا نظارة المعارف وحدها. ولكن الشرق أصبح في فوضى حقيقية من جهة التعليم لأنه زعم انه يريد نبذ أسلوب التعليم القديم والعمل على الاسلوب الجديد فنسي القديم ولم يدرك الجديد ووقفت الامة حيرى لا نعلم ممن تطلب الحساب.

وأعود الى كلام الاستاذ الغمراوي فهو يقول انه قبل النظر في نظرية طه حسين هذه وأدلتها وقبل المقارنة بين طريقة الدكتور في اثباتها وطريقة العلم في تمحيص النظريات لا بد من عمل مقارنة أخرى أهم من هذه المقارنة ومن تمحيص أمر آخر أهم من هذه النظرية ، وهذا الامر هو موقف صاحب الكتاب تلقاء القديم ، وهذه المقارنة هي المقارنة بين موقفه هذا وما يبرزه العلم الحديث . فاللغة العربية لو صدقت نظرية الدكتور لن تُرزأ بأكثر من تضييع نسب الشعر الجاهلي فيصبح مجهولا نسبه بعد ان كان ينسب الى شعراء معروفين اما الشعر ذاته فان اللغة لن تفقده لانه في رأي الدكتور « انما هو انتحال الرواة أو اختلاق الاعراب أو صنعة النحاة

أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين »

أقول : هذا هو المحال بعينه . فانه لا يأتي أحد في الدنيا عملا بدون غاية يقصد اليها . والى الآن يتعذر علينا ان نفهم المقصد الذي لأجله تكلف حماد والاصمعي خلق مئات ألوف من أبيات الشعر وعزوها الى الشنفرى والاعشى وامرىء القيس وغيرهم وخلق الحوادث التي قيلت فيها واقناع هذا الشعب العربي الكبير الذي يحصى بالملايين والذي صنعته الاخبار والروايات لا شغل له أهم منها بالتواطؤ معهم على ما خلقوه ! فما فهمنا مقصد الرواة في تسيير هذا الشعر المخلوق أولاً، ولا السبب في تواطؤ هذه الامة العظيمة — مع شهرتها بحرية الفكر — على هذا الكذب البارد ثانياً . ثم لم نفهم لماذا بعض « الاعراب » يختلق شعراً فينسبه الى غيره ؟ أفليس الأجدر به ان ينسبه الى نفسه ويفتخر به لاسيما ان الشعر كان من أعظم مفاخر العرب . ولقد سمعنا أن بعض الناس كانوا يدّعون شعر غيرهم من شدة بأو هذه الامة بالشعر وانه كثيراً ما وجد لصوص أدب يشنون الغارة على أقوال الناس ويزعمون انهم هم قالوها . فأما ان يقول اعرابي من البادية معلقة كقفا نبك مثلا ، ثم انه بدلا من ان ينشدها على أنها لنفسه وينال بها الصيت البعيد يذهب ويقول انها لامرىء القيس . فهذا مما تقاصرت أفهامنا عن درك سره ... وأما النحاة الذين جردوا القواعد النحوية من الشعر والكلام الذي حفظوه من كلام الجاهلية فلما وجدوا ان كل ما كان فاعلا يجيء مرفوعا وكل ما كان مفعولا يجيء منصوبا وان الاسم بعدَ كان مرفوع وانه بعد إنّ منصوب وهلم جرّا قرروا هذه الامور على أنها قواعد كلية وان ما خالفها هو شاذ . ولم يكن لهم ارب خاص ولا غرض معين في أن يكون هذا مرفوعاً وذاك منصوباً وذلك مجروراً بل انما قالوا به لانه هكذا جاء عن العرب . ولو نطق العرب بالفاعل مجروراً لقال النحاة بجرّه إذ ليس لهم أدنى جرمغنم من رفعه . فلماذا — ياليت شعري — يذهبون ويرتكبون اثم الافك ويخلقون شعراً من عند أنفسهم وينسبونه الى زيد وعمرو من الجاهلية ليؤيدوا به ان الفاعل

مرفوع وان الباء حرف جر وان الواو عاطفة وما أشبه ذلك . أفيا ترى لو كان الفاعل هو المنصوب والمفعول هو المرفوع وجاءت من شعر الجاهلية شواهد تؤيد ذلك أ كان ذلك يرزأ هؤلاء النحاة في رزقهم أو دينهم أو حسبهم أو يثلم من شرفهم ويغضّ من قدرهم ! ثم لو كان هناك نحوي واحد أو نحويان أو ثلاثة لهان الخطب وسهل التشدق بهذا المحال ولكنهم مئات وألوف، واذا نظرت الى العالم العربي يومئذ فقل عشرات ألوف . أفكل هؤلاء تواطأوا على الكذب وأنشدوا أشعاراً يؤيدون بها قواعد نحوهم وعزوها الى الجاهلية وهي ليست من الجاهلية . ثم ان هذه القواعد ليست في الحقيقة قواعد نحوهم بل هي قواعد كلام العرب والمناهج التي تمشي عليها هذا الكلام منذ وجدت لغة مضر فما ضرهم هم لو كان كلام العرب على نحو آخر . فما أسهل الفرض والتقدير على طه حسين، وما أهون الكذب والاختلاق في نظره، وما أفرغ ضمائر الخلق في حسبانه . ان هي إلا كلمات يلوكها فمه ويجري بها قلمه وهو يظن تحققها هيناً وليس شيء من ذلك بهين ولا بداخل في العقل . ان الناس حدثوا عن رجل كان يجيب على كل سؤال يلقى عليه حتى لا يقر بالعجز وكان سيال القريحة فقلما بادهه أحد بسؤال الابادر بالجواب وأورد شواهد . وكان أصحابه قد عرفوا هذا الخلق فيه فأرادوا لأجل الفكاهة أن يسألوه عن لفظ لا معنى له ليروا كيف يجيب فاجتمعوا واقترحوا أن يقول كل منهم حرفاً ثم يجمعوا الحروف ويركبوا منها اللفظة التي يريدون السؤال عنها ففعلوا ذلك فاذا باللفظة التي تركبت من تلك الحروف هي «الخنفشار» وهي لفظة لا معنى لها في اللغة . فجاءوا الى شيخهم وسألوه عن الخنفشار فبادر بجوابهم انه نبات ينبت بأطراف اليمن وان من خصائصه ان يجنب الحليب قال شاعرهم :

لقد جذبت محبتكم فؤادي كما جذب الحليبَ الخنفشارُ

ثم قال : ذكر داود الانطاكي في تذكرته كذا وكذا وذكر فلان عن الخنفشار كذا وأراد أن يأتي بحديث نبوي . فعند ذلك ضحك القوم وقالوا له : كذبت علي

الشاعر وعلى داود الانطاكي وعلى فلان وفلان فلا تكذب على رسول الله . وكيف كان أصل هذه القصة فما لا مرية فيه أن لفظة واحدة مخلوقة هي « الخنفشار » قد طبق خبرها الآفاق وصارت مثلا مضروباً وصارت ذات معنى في ذاتها يدل على التلفيق ، وصارت قصة ذلك الشيخ الذي أحب ان يخلق شاهداً من قريحته أشهر قصة حفظها الأدباء من قرون ولم يبق أحد تقريباً لم يسمع بحديث الخنفشار . أفيرى طه حسين بعد ذلك انه من السهل ان تكون شواهد اللغة كلها خنفشارية وانه « ليس ما يمنع » ان تكون هذه الشواهد كلها أو جلها من وضع النحاة ! ونحن نجاوبه : يمنع ذلك العقل السليم والمنطق والعادة والوجدان الصحيح والكتب الموجودة والادب المأثور والروايات المصححة والتواتر ويمنع ذلك ما لو فسد لم يصح علم في الدنيا .

وأغرب من هذا قوله ان الشعر الجاهلي هو « من اختراع المفسرين والمحدّثين والمتكلمين » !!! وأول دليل على فساد هذا الزعم ان هؤلاء المفسرين والمحدثين والمتكلمين لم يكونوا بشعراء ، وان وجد منهم من قرض الشعر فيكون نادراً ، والنادر لا حكم له . ثم ان كانوا قالوا شيئاً من الشعر فقد كان أسلوبهم فيه أسلوب علماء لا يخفى على الناقد البصير وهذا بعيد عن مذاهب الشعراء . وأذكر هنا النكتة التي رواها ابن خلدون في مقدمته عن لسان الدين بن الخطيب حين أنشده منشد :

لم أدر حين وقفتُ بالاطلال ماالفرق بين جديدها والبالي

فقال له : هذا شعر فقيه لقوله « ماالفرق » فان الشعراء لا يعرفون هذا الاسلوب . وبالاختصار ان المحدثين والمفسرين والمتكلمين ان وجد منهم من قال الشعر فانما يكون على أساليب العلماء المعهودة لا على أساليب الشعراء لاسيما شعراء الجاهلية هذه قضية لا يقدر أن يسفسط فيها لا طه حسين ولا مرغليوث ولا غيرهما إلا اذا جاز تعاطي المحال وصار يؤخذ به في الجدل فعند ذلك كل قول جائز ...

وليقل لنا طه حسين : مَن مِن أولئك المحدّثين كان يتعمد تزوير الشعر على

ألسن شعراء الجاهلية ؟ أفكان البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه واحمد بن حنبل والشافعي ومالك والمزني والدار قطني وابن تيمية وهذه الطبقات بمكانهم من الصدق والورع والتحرى الى الدرجة التي لم تعهد في أمة من الامم هم الذين يضعون تلك الاشعار الجاهلية وهاتيك القصائد على ما فيها من غزل وتشبيب وطروق نساء في الليالى الخ وهم الذين كان الواحد منهم اذا أراد ان يتلو حديثاً قام فصلى ركعتين وتوسل الى الله تعالى ان يلهمه الصواب حتى لا يأتي بحرف زائد أو ناقص . ثم ماذا كان مقصدهم من وضع هذا الشعر ؟ أفكان درساً في العفة ان يختلقوا مثل :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم تحوّلِ

أم كان درساً في التوحيد أن يضعوا للناس مثل :

حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

أم كان تزهيداً في شرب الخمر وضعهم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

ووضعهم الآخر :

واذا سكرت فانني مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم

أم كان غرامهم ان يشيدوا دين النصرانية حينما نظموا على لسان النابغة في مديح بني غسان :

يحيون بالريحان يوم السباسب

أي يوم الشعانين . وحين قالوا عنه :

محلتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

الى غير ذلك مما لو استقصي لم تسعه الاوراق ولم تضمه الاجلاد

ومن هم ياطه حسين أولئك المفسرون الذين زوروا هذه القصائد على الجاهلية؟ ان المفسرين عددهم محصور تقريباً وأشهرهم الطبري والرازي والزمخشري

والبيضاوى وابن برجان ومن عدا هؤلاء فلا يبلغون مكانتهم في الشهره أفأحد فى الدنيا يقول ان ابن جرير الطبري كان عنده من الوقت مع تآليفه التي كانت تفني الاعمار دون قراءتها وحلقات دروسه المتصلة التي كان يقصدها الناس من الآفاق بحيث انه كان يصنع القصائد على ألسن الجاهلية ! وهل القاضي البيضاوى هو الذى قعد يزور للناس أشعاراً على لسان النابغة الجعدى وأعشى باهلة ؟

وما الذي حداهم الى ذلك ؟ أفكان هذا الشعر الذي زوّروه في معنى آي الكتاب الذي فسروه !

ثم وصلت أيضاً يا طه حسين الى المتكلمين وأدخلتهم في مؤامرة التزوير هذه فآتنا ولو بشاهد واحد على صدق دعواك ، وقل لنا أي بيت قيل انه نظمه أبو الحسن الاشعري أو أبو منصور الماتريدي أو امام الحرمين أو شمس الاسلام الجويني أو الامام الغزالى أو أبو بكر الباقلاني أو النسفى أو غيرهم من المتكلمين عن لسان أحد من شعراء الجاهلية أو اشتبه فى انه له دون الجاهلي الذي نسب اليه وقل لنا ما غاية ذلك الامام المتكلم من تلك الكذبة واشرح لنا عما فى هذا الكلام المختلق من زيادة الاستدلال على وجود الله أوعلى صحةالاسلام ؟ ان هؤلاء المتكلمين هم مناطقة قضوا أعمارهم فى التعليل والقياس فلا يعقل أنهم يأتون عملا أو يقولون قولا بلا سبب

سهل عليك وعلى أمثالك القاء الكلام على عواهنه وان تقول « ان القدماء لم ينسوا في البحث قوميتهم ودينهم وما يتصل بهما فاضطروا الى المحاباة وارضاء العواطف فغلوا عقولهم بما يلائم هذه القومية وهذا الدين »

ولكن ليس بسهل عليك ولا على أمثالك أن تثبتوا كيف جروا في هذه المحاباة وفى ارضاء هذه العواطف ولا تقدرون ان تأتوا بشاهد واحد على هذا ،

وقصارى ما تأتون به « خيال » والخيال يبقى خيالا، و « افتراض » والافتراض لا يكون حقيقة مجزوماً بها ، لا سيا اذا كان بعيداً منبوذاً . فالقدماء أحبوا دينهم وقوميتهم وما من أمة من الامم إلا وقد أحبت دينها وقوميتها، والافرنج المعاصرون بالاجمال محبون لدينهم وقوميتهم وان وجد منهم من هو غير متمسك بدينه فهو تحت تأثير نشأته الدينية والقومية ، وكل من هذه الفئات تدافع عن دينها أو عن قوميتها وتجتهد ان تثبت كونها أهدى سبيلا من غيرها . ولكن الكذب والاختراع لاجل اثبات الحق هما بئس العمل لاثباته باتفاق الأولين والآخرين . وان اخفاء الحقائق لا سيا في الامور التي تناولتها أمم بحذافيرها وشعوب بقضها وقضيضها ليس من السهولة في المكان الذي يقع في خيالك وخيال مرغليوث . وان الحب الذي يشعر به الانسان لدينه أو لقوميته سواء أفي قديم أو في حديث لا يحمله على ترك وجدانه وتصيير نفسه كذاباً وضاعاً مفترياً مختلقاً وهو يعلم أن كل كذب فمصيره الى الفضيحة وانه مع ذلك من عقيدته في كفاية تغنيه عن ارتكاب السرقة

على أننا لو سلمنا جدلا بأن القدماء لغرامهم بدينهم أو قوميتهم أرادوا أن يعززوها بشواهد جديدة فلم نفهم حتى هذه الساعة ما الذي في شعر الجاهلية مما يعزز الاسلام ويزيد في ايضاح براهينه حتى يقوم المحدثون والمفسرون والمتكلمون بارتكاب كبيرة التزوير ويقولوا عن ألسن الجاهليين شعراً مخلوقاً لا حاجة بهم اليه ، فيكونوا كمن شهد الزور عفواً بلا طلب أو سرق على غير حاجة . وهذا أمر إن لم يردّه الدين والخلق ردّه المنطق والعقل

محاولة النا.جبود ثلاثة عشر قرناً ببضعة اسطر

ومن جليل الملاحظات التي أبداها الاستاذ الغمراوي في كتابه ما يأتي :

(لكن مذهب الاستاذ فيما يسميه بالقديم أي فيما أجمع عليه أهل العلم باللغة الى ظهور الكتاب يسلب اللغة أدبها كله ويسلب أهل اللغة كل تاريخ لغتهم وشيئاً كثيراً جداً من تاريخهم انه يذهب الى « أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث »

ص ٦٠ وكأن هذا لم يكفه فعقب عليه بقوله « لقد أنسيت فلست أريد أن أقول البحث و انما أريد أن أقول الشك » وما نضع موضع الشك فلن نبني عليه طبعاً ولن نستشهد أو ننتفع به بحال . فهو مبدأ يطوي ماضي اللغة كلها طياً،ويضرب على علم المتقدمين كله طلسما من الشك يحول دون انتفاع الناس به . ولا بد للناس بعد ذلك من أن يصبروا على غير لغة أو أدب أو تاريخ حتى يقوم المذهب الجديد منهب طه حسين فيكشف لهم أدباً و تاريخاً جديدين ويبتني للغة نظاماً جديداً يحل محل هذه الفوضى الجديدة التي يريدون ادخالها بهذا المبدأ على اللغة والتي اذا أباها الناس كانوا في رأي الدكتور لا يعرفون للعلم حقه الخ) الى أن يقول الاستاذ الغمراوي : « فهذا المبدأ الذي وضعه صاحب الكتاب في مقدمة كتابه تمهيداً لبحثه هو لا شك أهم وأشد خطراً من نظرية الكتاب بل هي بجانبه لا تبدو الا ضئيلة تافهة . ومع ذلك لم يره صاحب الكتاب جديراً الا ببعض صفحات يخصها له من كتابه كأن العلم الذي ذكر هذا المبدأ باسمه لا يحتم على الاستاذ اثبات صحته أو على الأقل تبريره قبل الأخذ به أو كأن تبرير مبدأ كهذا يلغي جهود ثلاثة عشر قرناً يمكن أن يقوم به كاتب في بضعة أسطر أو صفحات من كتاب . ان العلم الذي يكتب الدكتور باسمه لا يمكن أن يكون بعض مبادئه معطلاً لبعض . فهو لا يمكن أن يقر مبدأ يسمح لشخص ما ولو كان استاذاً في جامعة أن يهدم أو يعطل في دقائق ما بنته الاجيال في طوال القرون » الى أن يقول الاستاذ الغمراوي ولله دره « العلم كما يتحرز كل التحرز في البناء يتحرز كل التحرز في الهدم ، وكما يبني يحافظ على ما يبنى وكما يصون جهود الحاضر والمقبل من الاجيال أن تضيع في أبحاث لاطائل تحتها يصون جهود الماضي منها أن تضيع بشك جزاف لا مبرر له الخ »

لقد جمع الاستاذ الغمراوى فأوعى في هذه الجمل القليلة التي هي مثال من أمثلة البلاغة. وأضيف الى ذلك أن الشك لا يكون علماً لان الشك أشبه بالهدم والعلم

موجود فلا يكون الشيء معدوماً وموجوداً في وقت واحد

وأقول أيضاً : ان الاوروبيين الذين اخترنا النسج على منوالهم في العلم والثقافة لم يهدموا ماضيهم ولا نسفوا ما رفعته القرون الخالية . وهـذه الثقافة اليونانية واللاتينية لا تزال لعقولهم نبراساً ولآدابهم أساساً . والتجديد في الادب وفي كل شيء ليس معناه هدم كل بناء قديم لانه قديم بل هو هدم كل ما تحقق أنه مختل الاساس لانه مختل ولان الاقامة به خطر فأما اذا كان الاساس متيناً والبناء متراصاً متلائماً والاقامة بالبناء أو بجانبه لا تدعو الى الحذر ولا تؤذن بالخطر فيكون تعمد هدمه ضرباً من الجنون . أخطر ، ببال أحد أن يهدم الأهرام لأن الأهرام بنية قديمة زائدة العتق وأن يتبدّل بها بنيّة جديدة على الطرز الاحدث . كلا ! بل الناس يحرصون على الاهرام ويعدونها من مفاخر القرون السوالف ويجعلونها عبرة وذكرى ويتخذون من شكلها مثالا هندسياً منسوباً اليها . ثم ان هذا الجديد هو حلقة من سلسلة ، وسيأتي يوم يعود فيه قديماً ويأتي جديد بدلا منه

ان هذا القديم كان جديداً   وسيبقى هذا الجديد قديماً

والادب بنوع أخص لـكون مركزه الذوق يختلف عن العلوم الطبيعية ولا يتهيأ للاختراعات الجديدة كاتتهيأ هذه العلوم . ولقد شاهدنا أشد الناس استمساكا بالطرق العلمية المـادية وأعضّهم بالنواجذ على المحدثات العصرية اذا جئت به الى الادب وأسلوب القول حافظاً أشد المحافظة علي الديباجة المدرسية وأودع الآراء العلمية الحديثة قوالب ليست في شيء من الاختراعات الجديدة ، وما سمعنا بكاتب نزع عن الاسلوب المعروف في الكتابة الى أسلوب جديد يتوخى فيه لغةً جديدة واصطلاحات غير معروفة وساغ ذلك في أذواق الناس . وكثيراً ماسمعنا عن طه حسين وبعض من يسمون أنفسهم مجددين أنهم يريدون أن يجددوا في الادب

وما رأيناهم أتوا بشيء جديد . فهم بين أمرين : إما أن يقتدوا بالاولين في أسلوب الانشاء ويخوضوا في حديث التجدّد لكن بلهجة القدماء أنفسهم فيكونون خالفوا مايدعون اليه واما ان يحاولوا منزعاً جديداً في الكتابة فتراهم يخرجون عن أساليب اللغة ولا يعود كلامهم مفهوماً ويشعر كل من قرأه انهم يحاولون فلسفة باردة من أبعد الاشياء عن الذوق السليم . هذا من الوجهة العملية ، فأما من الوجهة النظرية فليقل لنا طه حسين : ما الادب الذي صحّ عنده بعد أن وضع الادب القديم كله موضع الشك ؟ فإن الناس لابد لهم من أدب ومن تاريخ أدب ومن تاريخ سياسة ولا يمكنهم أن يتركوا ثمرات العقول والقرائح في آماد متطاولة وحقب لايكاد يحفظ بدؤها لاجل أن يقول لهم طه حسين « ليس مايمنع أن يكون كذا » أو « ان الشك فيه لذة » أو « ان القدماء أحبوا الاسلام كثيراً فقصروا كل شيء عليه وكذبوا هذا الكذب كله لاجل تمجيد الاسلام » أو ماهو بمعناه مما يدل على سهولة الكذب الى الحد الاقصى عند طه حسين

ولقد جاوبه الاستاذ الغمراوي قائلا له : ولو ان الدكتور اتبع سنة العلم في بحثه لعلم ان قديم اللغة العربية اكبر من أن يقع دفعة واحدة تحت شك باحث علمي ولقصر شكه على ذلك الجزء من القديم الذي يتصل بموضوع بحثه . وليته اذ ترك سبيلهم في هذا تبع سنتهم في نقد القديم فبين حقاً وجوه النقد فيه ومواطن الضعف منه حتى يكون هو على بصيرة من بحثه وحتى لايضيع زمنه وزمن الناس في بحث أو ابحاث لعل الحاجة العلمية اليها غير قائمة . ولكنه لم يفعل هذا أيضاً كأنما قد أحس بأن الاخذ بسنة العلم هذه يطيل عليه الطريق الى مايريد ويجعل كل موقف شك يقفهُ واقعة بينه وبين مخالفيه فأراد أن يجمع الوقائع كلها في واقعة واحدة حاسمة : يشك هو في القديم كله جملة ويدافع المدافعون عن القديم جملة ونسي انه سواء انتصر عليهم في نفوس الشباب أو لم ينتصر فلن تكون الواقعة واقعة علمية

من جانبه ولن يقر العلم انتصاره لو انتصر لأن العلم يريد أن يكون التعارك والتدافع حول كل موقف وسيلة الى تمحيصه وتبيين الحق فيه . ولو في غير هذه الامة ظهر هذا الكتاب لكان فيا فيه من دعوة الى الشك في الماضي كله مايكفي وحده لاماتة الكتاب وليداً »

ثم أتى الغمراوي على ذكر مبررات الشك في زعم طه حسين ورد عليها واحداً واحداً بطريقة علمية تترك لقارىء الكتاب التأمل في أحكامها وسدادها ولكني أقف عند قول طه حسين « ان الشك قد يؤدي الى مايقرب من الثورة الادبية » وجواب الغمراوي له بقوله « ان العلم ليس من همه احداث الثورات ولا يرمي في ابحاثه الى استحداث الغرائب وما نراه من غرائب العلم انما جاء عفواً لم يقصد العلم أن يدهش به الناس انما طلبة العلم الحق يرحب به أينما وجده: ان وجده بين القديم استمسك به، وان كشف به من جديد فرح به، دهش له الناس أو لم يدهشوا . لذلك يحافظ العلم على القديم من الحق محافظته على الجديد منه . وهذا الكلام يبدو بدهياً لاحاجة الى توكيده لولا ان الطائفة التي تتلقب بالمجددة في مصر والدكتور طه حسين من قادتها تكتب وتتكلم على مايظهر كأن القدم علامة البطلان والجدة علامة الثبوت » الى أن يقول : « ان العلم ليس هو بالذي اذا ملّ نبذ ولم يحقق واذا استطرف قبل ولم يحقق . بل مذهب العلم في الواقع هو المحافظة أو قل ان العلم هو رأس المحافظين المتعقلين لاينبذ قديماً الا بحجة ولا يقبل جديداً الا ببرهان. وليس معنى كون العلم لاينبذ قديماً الا بحجة انه يرى ان كل قديم حق، لو كان يرى ذلك مانبذه قط لابحجة ولا بغير حجة بل لرأى - جرياً على قاعدة استحالة التناقض بين الحقائق - ان كل حجة تؤدي الى نبذه حجة باطلة لكن العلم ينزل المعلومات منازلها في القديم كما ينزلها منازلها في الحديث ».

ان هـذا الفصل من كتاب الغمراوي هو فصل الخطاب في قضية القديم والحديث وفي موقف الناس بينهما، يكاد الناقد البصير اذا قرأه أن لا يجد في عباراته أدنى فرجة يقدر ان يزيد بها كلمة أو ينقص كلمة فألفاظه مفصلة على قدر المعاني ومعانيه مفصلة على قدر الحقائق الثابتة ولقد أتم الاستاذ الغمراوي مبحثه في العلم وشؤونه وطريقة التحقيق فيه ودرجات الثبوت والراجح والمرجوح والقطعي والظني الى غير ذلك مما يجدر بالناشئة ان يحفظوه عن ظهر قلوبهم وان يتدبروا معانيه ويتخذوه دستوراً للعمل ومناراً للسرى في ظلام هذه الشكوك المعترضة . وأنا أزيد على ذلك ان العلم ليس فيه قديم وجديد وانه كما قال المتكلمون عن العلم الالهي ان الاشياء تستوي عنده الأول منها والآخر والحاضر منها والغابر، كذلك العلم البشري الذي هو شرارة من العلم الالهي يستوي أمامه القديم والجديد ولا يخصه منهما إلا الثابت فتخصيص العلم بزمان أو بمكان وقصره على شرق أو غرب أو مقدم أو مؤخر ضلال في أودية ليست من العلم في شيء ووصم العلم بما هو براء منه . وان هذه الفئة التي تسمى أنفسها بالمجددة في مصر أو في غير مصر انما تريد لتستثمر نزغات الشباب وبدوات الغرور الذي ينشأ عن قلة التجربة لتحمل الناس على نبذ كل قديم حقاً كان أو باطلا . وليس هذا العارض منحصراً في مصر أو في الشرق بل الطلبة في الغرب أيضاً من دابهم أن يملوا كل قديم وينشدوا كل جديد ويعترضوا على كل أمر أجمع عليه من تقدمهم ، وترى الناس هناك معهم في عناء ما دامت دماؤهم تغلي في مراجل الشباب فاذا قطعوا العقد الثالث من حياتهم رأيتهم رجعوا عما كانوا عليه وعدوه من غرور الشباب ونظروا في الامور من حيث جوهرها لا من حيث تاريخ مولدها وعلموا ان ما كانوا عليه من الشطط انما هو عمل اقتضاه تركيبهم الفسيولوجي الذي هو في فورة دم الشباب غيره في ركون جأش الكهولة .

ثم ان الاستاذ الغمراوي تكلم على مذهب ديكارت الذي هو سلاح طه حسين بزعمه والمحور الذي أدار عليه مباحثه واستخلص منه ان ديكارت لم يبدأ بالشك لاجل ان يستمر في الشك بل ابتدأ بالشك لينتهي الى اليقين وانه صار من قواعد فلسفة ديكارت ان ما وجد في الذهن واضحاً جلياً فهو حق يجب ان يسلم به تسليما

وأنا أقول ان ديكارت انما بدأ بالتشكيك ليزداد يقيناً ، أشبه بالرجل الذي يريد ان يطمر طمرة بعيدة فيرجع الى الوراء استجماعاً لقوته ومجده يستجد في هـذه الرجعة الى الوراء من العزم مالم يكن له لو قفز من مكانه . وما أحد من الفلاسفة قال ان ديكارت ابتدأ بالشك حتى ينتهي بالنفي . بل الامر بالعكس فقاعدته كانت أشبه بالشهادة أولها النفي ونهايتها الاثبات الذي لا شك فيه من ناحية من نواحيه ، فقد جعل ديكارت قاعدته ان يشك بادىء ذي بدء حتى اذا تأمل كيف أمكنه ان يشك انتهى الى نتيجة ان المتشكك موجود ثم انتهى من اثبات وجود الانسان الى وجود البارىء تعالى . هذا هو مذهب ديكارت . واني أرى أجحد متفلسف لمذهب ديكارت هو طه حسين الذي ما زاد على ان ألقى شبهات وأورد خوانس ثم لم ينته منها إلا الى حيرة عمياء ليست في شيء من مذهب ديكارت . وأقول أيضاً لو سلمنا جدلا بأن مذهب طه حسين هو مطابق لمذهب ديكارت فمن يقول ان ديكارت كان معصوماً من الخطأ وانه ان قال ديكارت فقد قضي الامر وجف القلم ، فلا ديكارت ولا فيلسوف آخر تلقى الحكماء جميع كلامه بالتسليم

وقد زعم ديكارت ان حركات الحياة ناشئة عن أرواح حيوانية يقذف بها القلب الى الدماغ ويقذف بها الدماغ الى الاعصاب ، واليوم نجد الناس يهزأون بهذه النظرية . ومن أهم ما نبه اليه الاستاذ الغمراوي من أدوات التضليل التى

استعملها الدكتور طه حسين هو قول الدكتور عن طريقة رينيه ديكارت انها تجرد الانسان من كل ما كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل . قال : على ان القاعدة الديكارتية ليست كذلك بل هي ان لا تقول عن شيء انه حق الا اذا قام البرهان على انه كذلك . وشتان بين هذا المعنى وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قيل في الموضوع من قبل اذ من الجائز ان يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته . وأنا أقول ان قول ديكارت : أشك في وجودي ، اذاً أنا موجود هي بنفسها تدل على عدم التجرد من كل ما كان يعلمه من قبل . فقد كان مقرراً عنده من قبل ان التشكيك هو تفكير وان التفكير دليل على وجود المفكر . فانتهى من هنا الى اثبات المخلوق ثم الخالق . وعليه يكون ديكارت عمل بقاعدة هي من البديهيات عنده من قبل ولا يكون تجرّد التجرُّد الذي يصفه لنا الدكتور

ومالي والتعليق على كتاب الاستاذ الغمراوي واستقصاء ما فيه وهو لم يترك في القوس منزع ظفر ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الموضوع الا وفاها حقها من البحث بطريقة علمية اعتادها من مباحثه في الكيمياء وعلم الطبيعة وتم فيها حظه بملكة عربية متناهية في البلاغة فجاء هذا الكتاب نسيج وحده في الجمع بين العلم والادب،وآية من الآيات الباهرة في ابراز التحقيقات العلمية بهذا القالب النفيس من لغة العرب وان من أفضل ما في هذا البحث ان صاحبه استاذ متخصص في علوم الطبيعة متمرس بالتجارب التي لا تكذب صاحبها مما يزيده صحة حكم وسداد نظر ويؤيده في التغلب على المكابرين والقامهم الحجر

لوزان ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨

شكيب ارسلان

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، المبعوثين بالحق ، والمخبرين بالصدق عن الله.

وبعد فهذا نقد لكتاب ظهر من قبلُ باسم ، ثم ظهر بعد باسم ، وحوى في الحالين باسم العلم كثيراً مما يجهله العلم

ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » منذ أكثر من عامين فسخطه الناس سواء العامة منهم والخاصة ، لا لأنه حوى حقائق ينكرونها ولكن لأنه حوى دعاوى خالفت ما يعرفون من أساسيات الدين واللغة والتاريخ . وكان فيما استلفتني من ذلك دفاع صاحب الكتاب عن كتابه باسم العلم ، وادعاؤه ان ذلك الذي سخطه الناس إنما هو نتيجة بحث أخذ فيه بمناهج البحث العلمي الصحيح . وهي دعوى لم تكن لتستحق التمحيص لولا أن الرأي العلمي في بلدنا هذا لم يتكوّن أو ليس له صوت مسموع . فلو كان في مصر رأي علمي مسموع الصوت ما أمكن أن يلقى ذلك الكتاب الفج دروسا على طلبة حديثي العهد بالدور الثانوي لا يستطيعون تمحيصا لرأي يلقيه عليهم أستاذهم كأحدث ما يتفق مع النهج العلمي الحديث.

ونظرت فاذا نغمة الشك المنبثة في الكتاب قد اتخذها صاحبه دريئة يدرأ بها نقد الناقدين . كلما حاكموه الى مسلّم به شك فيه ، وكلما حاجوه بحجة أنكر

مقدماتها أو سكت عنها كأنها لا تستحق منه اهتماما . وغرّ ذلك اشياعه فظنوا أنه الحق قد عجز عنه المبطلون . نظرت هذا فشعرت أن أمر أولئك النفر قد جل عن السكوت ، وأن نقد ذلك الكتاب من الناحية التي يزعمها لنفسه ويدعيها له صاحبه قد أصبح واجبا من الواجبات ، وأن أولى الناس بأداء ذلك الواجب من كان متصلا بالعلم في ناحية من نواحيه ولم يكن منقطعاً عن الأدب انقطاعا يسد عليه الطريق

عندئذ صحت العزيمة على تناول صُلب ذلك الكتاب بنقد يكشف عن طريقته أعلمية هي أم غير علمية ، ويقرن بعض أجزاء الكتاب الى بعض ليتبين أمتوافقة هي فيما بينها أم متخالفة ، فإن الطريقة العلمية يعرفها المشتغلون بالعلم وهم بيننا غير قليل ، وتوافق أجزاء الكتاب الواحد ضروري ان كان ذلك الكتاب قد صدر عن تفكير صحيح . وأقل فوائد هـذا النوع من النقد أنه اذا أحسن القيـام به يسد أبواب المراء على أهل المراء والشك ، ويخيرهم بين أن يذعنوا للحق أو أن يصيروا مثلا وسخرية في العقلاء

وكان من أثر ذلك العزم أن ظهرت سلسلة كلمات في جريدة « البلاغ » (١) تنقد كتاب « في الشعر الجاهلي » من الناحية العلمية ، إحقاقاً للحق وإنصافاً للعلم والدين . وهي كلمات كدنا ننزل على رأي بعض أولي الفضل فنجمعها إذ ذاك كتابا ، لولا أن ذلك لم يكن من قصدنا حين كتبناها ، وأن الكتاب الذي كُتبت في نقده كان قد صودر ورفع من الأسواق ، فلم نسترح إذ ذاك الى نشر النقد كتابا وقد طُوي المنقود

لـكن المنقود عاد فانبعث بعد أن غيّر من زيه وإن لم يغير من حقيقته . فلم نجد بداً من أن نعيد ذلك النقد ونجعله بعد التعديل المناسب نواة لنقد

(١) في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦

أوسع يتناسب مع التضخم في الكتاب المنقود . فكتاب «في الأدب الجاهلي» ه. هو كتاب « في الشعر الجاهلي » بروحه وغايته وطريقته ، لم ينتفع فيه صاحبه بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه ، فإني لا أعرف في عهدنا هذا كتاباً لقي من عناية النقاد على تنوعهم ما لقي ذلك الكتاب . وهم لم يعنوا به لأنه جاء بقيِّم يستدعي اكبارهم ، إذ كل ما كتب الكاتبون فيه كان تخطئة له في صميمه ودلالة على عيوبه ، وإنما عنوا به لأنه تعرَّض بالهدم للثابت مما يكبر الناس من دين ولغة وتاريخ . فهي عناية كانت أشبه بعناية الطب إذا هب لمكافحة مرض تهدد جرثومته الناس

وفي رأينا أن إعراض صاحب ذلك الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد الكثير الصائب أدل على الروح الذي يحركه والغرض الذي يسعى اليه من كل ما نمّق وما ينمق من زخرف يزعم به التجرد من الهوى والجري على سنن العلم الحديث ، وأن إخراجه كتاب « في الأدب الجاهلي » وفيه ما فيه من اغلاط « الشعر الجاهلي » لدليل قصور عن ادراك الحق ، أو عنادٍ يخرج صاحبه من دائرة طلاب الحق

أما نوع تلك الأغلاط ، وبُعد ما بين الكتاب وبين العلم وسننه في النظر والبحث ، فهذا ما نرجو أن يتبينه القارىء من هذا النقد التحليلي لذلك الكتاب

محمد احمد الغمراوى